# خطاب
# إلى جندي أمريكي

عنـــوان الـكـتـــاب: خطاب إلى جندي أمريكي
تـــــــــــــأليف : النائب السوداني حَسن الطاهر زروق
اختيـــار وتقـــديم : أ. ديب علي حسن
سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم/203/ تشرين الثاني/ 2024
الـنـــاشـــــــــــر: اتحاد الكتاب العرب
الإخـــراج الفـــني: وفاء الساطي

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتّاب العرب

البريد الالكتروني:mawkif@tutanota.com

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
ttp://www.awu.syh

حَسن الطاهر زرَوق

# خطاب
# إلى جندي أمريكي

اختيار وتقديم

أ. ديب علي حسن

سلسلة الكتاب الشهري ( كتاب الجيب ) رقم ( 203 )

# بدلاً من التقديم

**ديب علي حسن**

لا أحب أن أقدم أمراً ليس لي فيه الجهد الكبير، إنما هو إعداد وتوثيق وإعادة تذكير به، الحرب العدوانية الظالمة على غزة ولبنان وعلى الضمير العالمي لم تكن إسرائيل أو الكيان الصهيوني سمه ما شئت أن يقوم بها لولا الدعم الأميركي، لولا التوحش الغربي ومن واشنطن، لولا أساطيل أميركا وجسرها الجوي لدعم المرتزقة الصهاينة، هذا يعرفه العالم كله، وهل أصدق من المبدع في فضح هذا. بدلاً من المقدمة نصوص تفضح جبروت أميركا، نصوص هي رسالة لكل أميركي جندياً أم مثقفاً أم دبلوماسياً هذه حقيقتكم وليم بلوم: لو كنت رئيساً للولايات المتحدة ففي اليوم الرابع سأقتل.

إذا كان الآباء المؤسسون يرون أنهم مكلفون رسالة جديدة وأنهم سوف يعملون على تغيير العالم وهدايته. وما عبورهم الأطلسي إلا بأمر إلهي، هذا يعني أن أمريكا والأمريكيين هم شعب الله المختار، وأمريكا بهذا المعنى أمة القطيعة بكل ما تحمله الكلمة من معان ودلالات، هكذا يرى المنظرون الأمريكيون وعلى رأسهم ميشيل بونيون في كتابه المهم: (أمريكا الشمولية) ولكن إلى أين قادت العالم أمة القطيعة؟ وكيف يسوغون هذه الاستباحة لكل ما هو إنساني في أقطاب الأرض كافة؟ أحد الهنود الحمر اختصر المعادلة وقال: ما أغزر دموعهم فوق جثث ضحاياهم! بمعنى آخر إنهم يحسنون اقتناص الفرص، بل وضعها واستثمارها والبكاء على ضحاياهم.

نعوم تشومسكي المفكر اليهودي الأمريكي، يرى أن الولايات المتحدة ابتدعت النزعة العسكرية الإنسانية، فهي تلقي بأطنان القنابل فوق الرؤوس ومعها بضع مئات من الأرغفة وأيهما يصل الأول فهو الأكثر فاعلية، ودون شك ستكون الأشلاء قبل الأرغفة، وعلى الرغم من الأصوات التي ارتفعت من داخل الفكر

الأمريكي فاضحة هذه الممارسات، فإن القافلة برئاسة بوش مستمرة وماضية، وما على المؤرخين إلا أن يدوّنوا أو يسجلوا الجديد فيما يقدمه كاتب وسياسي أمريكي هو وليم بلوم، أنه وضع كتاباً مهماً وتحت عنوان لافت ومثير، ولا يقل أهمية عما قدمه نعوم تشومسكي، عنوان الكتاب (الدولة الشريرة إساءات السياسة الأمريكية لشعوب العالم) صدر الكتاب في عام 2006م وقد ترجمه الى العربية د. محمد عرب صاحيلا ونشرته دار الذاكرة.

يبدأ بلوم كتابه فيسرد عدة أقوال تحمل في طياتها مفاتيح عمله، بل إنها تدلل على عمق الهوة بين الولايات المتحدة والعالم، تقول مجلة دير شبيغل: لم يحدث قط حتى الآن في التاريخ الحديث أن هيمن بلد تماما على الكرة الأرضية كما تفعل ذلك اليوم الولايات المتحدة، إن أمريكا الآن هي ذات عضلات مفتولة، ومتباهية، ومهددة وفي غياب حدود تعاون قبل أي كان، وبأي طريقة كانت، يتصرف الأمريكيون في (عالمهم) كما لو وقع أحد لهم شيكا على بياض.

أما مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية أيام كلنتون فترى أمريكا دولة مسالمة طيبة، بل أماً وأباً حنونين لا يمكنهما النوم دون الاطمئنان على دفء الأبناء وسلامتهم، ولو كلفهما ذلك الذهاب بعيداً: (الولايات المتحدة دولة طيبة، ونحن نحاول القيام في كل مكان بأفضل ما عندنا).

شهادة حسن السلوك هذه لا تجد آذاناً مصغية لدى منظمة العفو الدولية التي ترى في الولايات المتحدة شريكاً أساسياً في انتهاكات حقوق الإنسان أينما كانت (مع كل يوم جديد يطل على العالم يتعرض رجل أو امرأة أو طفل على الأرجح للإبعاد أو التعذيب أو القتل، أو الاختفاء على يد حكومة أو جماعة سياسية مسلحة، وفي أغلبية الحالات، تشارك الولايات المتحدة في تحمل مسؤولية ذلك).

**لغة الرياء...**

يرى المؤلف أن الرئيس الأمريكي جورج بوش هو سيد الرياء الآن في العالم بلا منازع، وقد بدا ذلك جلياً وواضحاً من خلال ما صرح به من خطب ومقابلات وأفعال ملموسة. (وبمزيد من الرياء المذهل أعلن الرئيس

بوش وغيره من الرسميين الآخرين بغضب على الأغلب أن الولايات المتحدة لن تشن الحرب على الإرهابيين فقط، وإنما على كل بلد يؤوي إرهابيين، إلا أن القارئ سيرى أن قليلا من البلدان إن لم نقل إنه ليس هناك من بلد يؤوي بقدر ما تؤوي الولايات المتحدة من إرهابيين).

### عقلية التآمر وزرع الخوف

يرى الباحث أن العقل الأمريكي كما تظهر ذلك أفكار ميخائيل واين ودافيد لورانس، مصوغ سياسياً بشكل عميق بحيث يحتاج الأمر من أجل تحريره إلى حذاقة فلسفية وجراحية قل نظيرها، ويبدو أن الأغلبية الساحقة من الأمريكيين بمن فيهم الأكثر وقاحة الذين لا يحتاجون لأن يقتنعوا بأن الكلمات التي تخرج من فم السياسيين هي مزيج من الشر واللا معلومة، يفقدون روحهم النقدية.

ويدلل على الروح الشريرة عند السياسيين الأمريكيين بالحديث عن إلقاء القنبلتين الذريتين على هيروشيما وناكازاكي، فاليابانيون حسب ما يذهب إليه أنهم سعوا طوال شهور قبل ذلك للاستسلام وأن

الأمريكيين كانوا يتجاهلون باستمرار اقتراحاتهم، أما القنابل فلم تلق من أجل إخافة اليابانيين، وإنما من أجل ترسيخ الخوف من الأمريكيين في نفوس الروس، وقد قيل ان إلقاء القنبلة الذرية لم يكن الطلقة الأخيرة في الحرب العالمية الثانية، وإنما الأولى في الحرب الباردة.

وفي الكتاب يتوقف الباحث عند أمثلة تطبيقية في الممارسات الأمريكية بحقالإنسانية فيعقد فصولاً عدة للحديث عن التعذيب والفساد ومجرمي الحرب، وفي القسم الثاني يتوقف عند استعمال الولايات المتحدة لأسلحة الدمار الشامل بدءاً من القنابل الانشطارية مروراً بالأسلحة الكيماوية والبيولوجية واليورانيوم المنضب، ليصل بعد ذلك إلى التقرير أن الولايات المتحدة دولة شريرة ضد العالم وسلوكها في التدخلات في العالم منذ عام 1945م حتى الآن يدل على ذلك ووسائلها في ذلك كثيرة (الاحتلال، المخابرات، الأمم المتحدة، العملاء..)

**لوكنت رئيساً**

إن تمنياته أن يكون رئيساً للولايات المتحدة تدفعه لأن يقول: لو كنت رئيساً للولايات المتحدة لأوقفت في بضعة أيام الهجمات الارهابية على الولايات المتحدة نهائياً، وذلك أولاً بتقديم اعتذاري لكل الأرامل والأيتام والأشخاص الذين عُذّبوا والذين سقطوا في حالة من البؤس وللملايين من ضحايا الامبريالية الأمريكية الآخرين، وثانياً: بإعلاني في أقاصي الأرض أن التدخلات الأمريكية في العالم انتهت نهائياً، وإعلاني إسرائيل بأنها لم تعد الولاية الحادية والخمسين، وإنما هي من الآن فصاعداً بلد أجنبي وهو أمر من الغريب قوله، ثم بتخفيض الميزانية العسكرية بنسبة 90٪هذا ما كنت لأفعله في الأيام الثلاثة الأولى، وفي اليوم الرابع كنت سأقتل).

بقي أن نشير إلى أن بلوم كان موظفاً سابقاً في الخارجية الأمريكية وهو أدرى كيف تستغل الولايات المتحدة شعارات الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان لتمارس أعمالاً إجرامية وتتصرف بطريقة هي الأكثر وحشية في التاريخ.

### ونيويورك بعيون ثلاثة مبدعين عرب

ترى كيف رأى مبدعونا مدن العالم الغربي، لاسيما الولايات المتحدة الأميركية، إذ كانت أمريكا المقصد من الهجرات التي بدأت منذ نهايات القرن التاسع عشر، ومازالت مستمرة، وظاهرة الأدب المهجري الذي نشأ في الأميركيتين مازالت آثارها الإبداعية ماثلة للعيان.

نيويورك المدينة الأميركية التي يطالعك نصب الحرية على شواطئها، كتب عنها الكثيرون، مبدعون عرباً وأجانب، استلهمها، ويمكن أن تصنف مجلدات في هذا الصدد، نتوقف اليوم عند ثلاث رؤى لكتاب عرب مبدعين، كتبوا عنها، والفارق الزمني بينهم يقتضي أن تكون قد تغيرت الرؤى، ولكن على ما يبدو أن جوهر الاستغلال هو الذي يحرك عاصمة ناطحات السحاب.

### أمين الريحاني: مدينة الدخان

عاش فيها ردحاً من الزمن، لكنها لم تكن مدينته الأثيرة، ولم يكن ليقدر على العيش فيها، هي مدينة ملوثة بكل المعايير، المادية والقيمية، مدينة

الاستلاب، مدينة الناطحات القاتلة، مدينة التقنيات، لكنها مدينة العبودية يقول الريحاني:

دخلتُ ذات يومٍ مصعد إحدى بنايات نيويورك الشّاهقة، فرفعني الخادم في أقلٍّ من دقيقةٍ إلى الطَّابق الأخير منها ـ الطابق الخامس والعشرين ـ ومن هناك أخذتُ أدور صاعداً درجاً من الحديد لولبيّاً حتى وصلتُ إلى قبَّة البناية العظيمة؛ قبة تكادُ تختفي بين الغيوم في النهار، وتضيعُ بين النجوم في الليل، قبة ترتفعُ بين أبنية نيويورك العالية ارتفاع هذه فوق بيوت الفقراء الحقيرة، ومن هُناك يُشرِف المتفرِّج على مدينة نيويورك العُظمى، وينظر إليها نظرة الطّائر، ولكن يجب عليه قبل أن يرى أسواقها المزدحمة أن يطلّ من حالق على سطوحها المشتبكة بأسلاك البرق والتلفون، المُغشَّاة بالدخان المتصاعد من المداخن ومن آلات سكك الحديد الجارية فوق الأسواق.

وبعد أن وقفتُ في القبة بعيداً عن ضجَّة الأشغال، وحركة التجارة، وصِياح باعة الجرائد، وضوضاء الأرتال والمَركبات، تنشَّقتُ الهواءَ النَّقي الذي يَنُدرُ في البيوت والأسواق، تنشَّقتُ منه مِقداراً وافراً، وسرَّحت

نظري فيما تحتي من السطوح، وما فوقها من المداخن التي يتصاعد منها الدخان على الدَّوام في النّهار وفي الليل؛ فخُيِّل لي أنَّ هذه المداخن أفواهُ براكين هائلة تُنذِرُ بقدومِ انفجارٍ عظيمٍ، فكأنَّها أيادي أُولئك المُعدنين السوداء مُرتفعة نحو السماء ليصرف الله عنهم البلاء، وكأنَّ الدُّخان المُتصاعد من أناملها هو الفائض من دخان الظُّلُمات التي يسكنها المُعدنون، ويحفرون فيها ساكتين صابرين، ألوف من المداخن تنفثُ في وجه السَّماء روحها الغازي، رافعةً إلى الخالق احتجاجها على القائلين بحركة العمل المستمرة، بالحركة الدَّائمة التي لا يتخلَّلها راحة ولا هدوء.

أترى هذه المداخن فوق هذه السّطوح؟ لينفُذْ بصرك في الضَّبابِ المُتصاعد منها، فترى ما وراءها من الشَّقاءِ والبلاءِ، من الويل واللأواء، إنَّ وراء هذه المداخن ـ وإن شئتَ فقُل تحتها ـ أُلوفاً من الأرواح البشرية التي تضربُ بالمعاول تحت الأرض اثنتي عشرة ساعة كلَّ يومٍ، فالدخان هو روح الفحم الذي يحترق في الألوف من الأكوار والمواقد والأُتن، ومع الفحم أيضاً تحترق أرواح أولئك الرجال والأولاد الذين يُعدنون في ظُلمَةٍ قتَّالةٍ لا

يدخُلُها الهواءُ ولا النور ولا الماء إلا بالطرائق الصناعية؛ فهم يستخرجُون الفحم وهم يحملونه إلى الأرتال التي تنقله إلى المدن والقرى، هو عملهم المقدَّس الذي يحترق الآن أمامك ويذهب أدراج الرياح، نعم، إنَّ نتيجة عملهم للعالم عظيمة، ولكنها لأنفُسِهِم عقيمة، هي كالدخان الذي يتبدَّدُ الآن تحت عينيك.

### عبودية وموت

ليست مدينة العبودية وكفى، بل هي مدينة الموت، الموت الزؤام، كل شيء فيها يموت ليبقى المعدن ويبقى الدولار، نيويورك ليست مدينة الحياة لغير المال والبورصات:

لا يمضي شهرٌ إلاّ ويحدُثُ في معادن الفحم في هذه البلاد وفي غيرها كوارث تقضي على مئات وألوف من المُعدنين بالموت السريع؛ فكم مرَّة انهالت الأرضُ على أولئك المُستعبَدين، وهم على أشغالهم مكبُّون قانعون، فأيَّمت أُلوفاً من النساء، ويتَّمَت أُلوفاً من البنين! فضلاً عن استخراج الفحم، فإنه تمثال الموت التدريجي البطيء، فكلُّ مُعدِّنٍ يموتُ بحكم الطبع مُنتحراً؛ إذ ليس الانتحار محصوراً بتجرُّع السُّم، وباستنشاقِ الغاز،

وبإطلاق المسدس، لا، الرَّجُلُ الذي يضطر أن يشتغل مع بَنِيه الصغار تحت الأرض، فيُحرم الهواء النقي والنور وجمال الفضاء لا يموتُ أبداً موتاً طبيعياً، والهيئة الاجتماعية التي لا تقوم إلا بشقاء فئةٍ من بَنِيها هي هيئة مُظلمة مختلَّة، هي هيئة فاسدة تفتقرُ إلى كثيرٍ من الإصلاح والتعديل والتحسين، قد تقدَّمنا ـ على ما يزعم ـ بعضهم في الحضارة والتمدُّن، وقد حرَّرنا ـ على ما نَعلَم ـ العبيد، وأطلقنا الحرية في بلاد الغرب لكلِّ امرئ، فقيراً كان أو غنيّاً، ولكن العبودية الجديدة تظهرُ في مظاهر مُختلفة وأثواب غريبة، فماذا ينفعُ السجين قولك له: أنت حر؟ ماذا ينفعه تغيير ثوبه المخطَّط بثوبِ الرِّجال الأحرار إذا ظلَّ راسفاً في سلاسل الحديد مسجوناً في غُرفته المُظلمة؟

قد تغيَّرت القيود وتنوعت السّلاسل، واستُبدِل النَّخَّاسون بغيرهم، تعددت الأسباب والموت واحد!

إنّ في الولايات المتحدة من العبوديات أنواعاً وأشكالاً، فهناك العُبودية في المعادن، والعبودية في آبار الغاز، والعبودية في معامل الأنسجة وفي عالم العمل على الإطلاق، فمتى يا تُرى يتحرَّرُ الإنسان حقّاً، وتشمل السعادة والرَّاحة كل أُسرة بشرية؟

كفانا تأمُّلاً في المعادنِ والمداخِنِ والدخان، لنَعُد إلى عالم التجارة لنسقط إلى ساحة الجلبة والحركة والضّوضاء، ها قد صِرت في الشارع أسمع باعة الجرائد يُنادون على جرائدهم: أخبار أخيرة، أخبار مهمة، فابتعتُ نُسخة من جريدة المساء وعُدتُ إلى البيت تحت ضباب الفكر، وبين دخان النفس ولهيبها، فجلستُ إلى الكانون، وقرأتُ الخبر الآتي:

اضطرابٌ هائِلٌ في البورص، وسقوطٌ عظيمٌ في الأسهم، قد بلغت الخسارة في ساعة واحدة خمسين مليون دولار بسبب سقوط الأسعار الفجائي.

خمسون مليون دولار تخسر وتكسَب في هنيهةٍ من الزَّمن، وألوفٌ من المُعدنين يضربون بالمعاول عشر ساعات في النهار، ويُخاطرون بأرواحهم وأرواح بَنِيهم في الظُّلُماتِ الكالحة تحت الأرض من أجل دولار أو دولارين! ما أجمل هذا العالم يا صاح! وما ألطف هذا التمدن الحديث الذي يأتينا في كلِّ شارقةٍ وبارقةٍ بمثلِ هذه الغرائب الخارقة!

**ميخائيل نعيمة : ميخائيل نعيمة:**

**جهنّم الأرض**

أما ميخائيل نعيمة الروحاني والغارف في صوفية الشرق فله رؤية مختلفة تماما بالتفسير لمدنية الغرب، يقول في كتابه المهم (المراحل) مفسراً مادية الغرب: إن ما أدركه الشرق منذ أجيال بإيمانه واختباراته الروحية، يحاول الغرب اليوم أن يتوصل إليه بمكرسوبه وتلسكوبه.. ويضيف بمكان آخر في المقال المنشور في الكتاب نفسه: فإذا كان أثمن آثار الغرب وأعزها هو هبة الشرق فكيف للشرق أن يمد يده إلى الغرب مستعطياً، وماذا عساه يستعطي سوى طيارات وقطارات ودواليب، أسلاك ولوالب ومدرعات وبرلمانات ومتاحف ومعاهد ومقاصف، ومخدرات، وعلل ومشكلات كثيرة لتدنيه من كنه الحياة ولا لتعطيه طمأنينة روحية ليس يحصل عليها بإيمانه؟

والشرق كما يقرر نعيمة: لفي غنى عن اقتباس حرف واحد من المدنية الغربية، إذ ليس الاقتباس إلا تقليداً، وكل من يقلد سواه لا يكون مخلصا لنفسه، لأنه يخفي حقيقته ليظهر بحقيقة سواه.

فالغرب أحوج إلى مدرسة الشرق من الشرق إلى مدرسة الغرب.

بعد هذه الرؤية ماذا يقول عن نيويورك؟ وكيف يراها؟ هل يغير رؤيته؟

في الكتاب السابق نفسه وتحت عنوان: مشهدان، المشهد الأول ـ نيويورك ـ تنين البحر والبر (عصر نهار أواخر تموز – لا يحدد العام – طبعا يصف حديقة صغيرة جلس فيها وتدعى: (مديسن سكوبر)؛ وهي حديقة صغيرة في منتصف المدينة، يصف الجالسين فيها ولاسيما زنجية كما يقول فطساء الأنف غليظة الشفتين، ثم ينتقل إلى وصف مشاهد أخرى يقول: ممرات الحديقة الإسفلتية ومقاعدها الخشبية ومنفرجاتها الصغيرة العشبية المكتظة بأمثال هؤلاء – الجلوس – وبأصناف عديدة من البشر سواهم قذفتهم إلى جوف التنين كل أنواع الأقاليم والديار على وجه الأرض، السائرون منهم يرون شرقاً وغرباً، وجنوباً وشمالاً، شرقاً، رجالاً ونساءً كباراً وصغاراً يسيرون بلا انقطاع كعسكر من النمل.. من هؤلاء الناس؟ من أين أتوا، لماذا أتوا، وماذا يعملون في جهنم الأرض؟

إنهم متعبون كما يراهم تأكلهم الحياة والمدينة الصاخبة، (الشمس في السماء لكن من في الحديقة يشعرون بها ولا يرونها، لأنها مقنعة بقناع كثيف، ليس ضباباً، ولا سحاباً، إن هؤلاء إلا أنفاس التنين المتصاعدة من ألوف المداخن، وملايين النوافذ، وجبال متراكمة من الحديد والحجر والقبر والإسفلت وقوافل لا يدرك أولها، وآخرها من العجلات المسيرة بالغازات والمسيرة بالكهرباء).

والمشهد عالق ما بين السماء والأرض (تتصاعد هذه الأنفاس في الهواء فينوء تحتها الهواء، ترفعها الأرض بكل قوتها فتشمئز منها السماء، وتضغط بها إلى الأسفل، فتبقى عالقة بين الأرض والسماء، حافظة من الشمس حرارتها، خانقة من النسيم أنفاسه، ضاغطة بصفائح من حديد محمية في نار جهنم على صدر التنين المتمدد بين نهرين، الفاغر فاه ليشرب البحر ويبتلع البر دون أن يرتوي يوماً أو يشبع، التنين يتنفس، ويكاد يحترق بأنفاسه..).

هذه نيويورك عند نعيمة الذي يقفز مباشرة إلى المشهد الثاني مقارنة بالأول، ويصف (الشخروب – في

سفح صنين) بلده وطبيعته، أليس الملقب بناسك الشخروب؟

نيويورك مدينة الضباب والاستلاب والموت، والإنسان التائه الذي يتحول إلى مجرد رقم فيها، لا حياة ولا قيمة، فقط أعمل وأعمل لتحقق شعار: (دعه يعمل دعه يمرّ) ولكن هل تنجح بذلك؟

**صوت الدولار**

وخلاصة القول: يرى نعيمة، وبداخله إحساس ثقيل بالنقمة، أن المدينة لا يؤنسها شيء من الرحمة والعدل والمحبة، وكل ما فيها مطامع ومصالح ترهق الإنسان وتجره إلى الانحراف عن طبيعته وطريقه القويم، على العكس من بسكنتا المسالمة، يضيف إلى تلك المقارنة التقليدية، ملاحظات أخرى ويقول: إن هذه البلاد، يقصد أمريكا، خالية من التقاليد والجذور ويسعى فيها الجميع إلى خوض المغامرات وكسب المال.

ويصفها في عبارات عدة بأنها بلادٍ الأسياد التي راح من أجلها يغير المهاجرون أسماءهم وكنيتهم في سبيل الاندماج مع ثقافتها ولسانها وقواعدها، وتفادياً لسخريتها من حروفهم، فيكتب: "في عقيدة مهاجرينا،

فتبدل الأماكن والأزمنة كان يقضي بتبدل الأسماء كذلك، وهكذا أصبح أخي أديب "دجو" وأخي هيكل "هنري"، وكم من مهاجر ترجم حتى اسمه وكنيته ترجمة حرفية، فبات منصور حداد مثلاً "فكتور سميث."

ما بين "سوري وصيني وبولوني وروسي ويهودي وزنجي وإيطالي وإيرلندي... إلى آخر ما هنالك من أمم الأرض، وليس يجمع بينها غير صوت الدولار وغير وجهه الكريم".

ونيويورك هي اليوم ذاتها زادت من وحشيتها وسطوتها، مدنية الغرب قهر واستلاب، وما ينطبق على نيويورك ربما ينسحب على معظم مدن الغرب، هذا ما عبّر عنه أدونيس في كتابه المهم جداً: (كتاب الغرب).

### أدونيس: نيويورك ورم زائد على الوجود

وما قدمه أدونيس في كتابه الجديد: ( كتاب الغرب) الصادر عن دار التكوين، وهو قراءات متعددة في الثقافة والفكر والسياسة والحضارة.

عرا جنة الوهم عند من يتوهمونها وراء لجة البحار ويظنون أن المنّ والسلوى حيث تقوم ناطحات السحاب وحيث كل إنسان مجرد رقم في بطاقة ما.

يحلم الكثيرون أن يصلوا إلى الغرب ولكن ماذا عن الذين وصلوا إليه وعاشوا فيه وقرؤوا بنيته الفكرية والاجتماعية التي تبدو كما أسلفنا مرآة تشد لكنها في واقع الحال وبعد التجربة هشيم بل بيت عنكبوت تمزق مرات ومرات.

أدونيس واحد من أهم المفكرين العرب والعالميين في المشهد كله... عاش في الغرب وخبره يبحر محللاً أعماق الوسط الاجتماعي... حصيلة التجربة كلها في كتابه هذا.

وقد جاء الكتاب احتفاء بدخول أدونيس العقد التاسع من العمر.

الكتاب سفر كبير يقع في أكثر من 850 صفحة من القطع الكبير والتجليد الفني الفاخر..

وكان اللافت أن يفتتح الكتاب بقصيدة أدونيس: قبر من أجل نيويورك.. تبدو القصيدة الملحمة استشرافاً للتاريخ والحراك الحضاري والتقني وقراءة في مسار

غطرسة القوة.. نيويورك التي تدير العالم عبر حبالها السرّية وأدوات فتكها المعلنة وغير المعلنة... هي الوجه الهمجي لكل جبروت الآلة والطغيان المادي.

تبدو سماء من الأضواء التي تعج بالحياة لكنها في الواقع حياة منخورة أكلها الصدأ تنقل عفنها إلى العالم.

تعمل على نقل بثورها إلى الخلايا السليمة وكأنها لا تريد أن ترى بقعة من العالم إلا وأكلها الصدأ وتغلغل الموت في ثناياها...

ونيويورك ليست إلا طفحاً أو ورماً زائداً على الوجود.. بل ربما زوالها يريح البشرية من ثآليل الجرب وويلات الحروب.. يقول أدونيس في هذه الملحمة التي تعود إلى سبعينيات القرن الماضي..

حتى الآن، تُرسم الأرض إجاصة أعني ثدياً لكن، ليس بين الثدي والشاهدة إلا حيلة هندسية:

نيويورك، حضارة بأربع أرجل، كل جهة قتلٌ وطريقٌ إلى القتل، وفي المسافات أنين الغرقى.

نيويورك، امرأة ـ تمثال امرأةٍ في يدٍ ترفع خرقة يسميها الحرية ورقٌ نسميه التاريخ وفي يدٍ تخنق طفلةً اسمها الأرض.

نيويورك، جسدٌ بلون الإسفلت، حول خاصرتها زنارٌ رطب، وجهها شباك مغلق.. قلت: يفتحه وولت ويتمان - «أقول كلمة السر الأصلية» - لكن لم يسمعها غير إله لم يعد في مكانه، السجناء، العبيد، اليائسون، اللصوص، المرضى يتدفقون من حنجرته، ولا فتحة، لا طريق. وقلت جسر بروكلين! لكنه الجسر الذي يصل بين ويتمان ووول ستريت، بين الورقة ـ العشب والورقة ـ الدولار...

نيويورك ـ هارلم، من الآتي في مقصلة حريرٍ، مَن الذاهب في قبر بطول الهدسون؟ انفجر يا طقس الدمع، تلاحمي يا أشياء التعب، زرقة، صفرة، ورد، ياسمين والضوء يسنّ دبابيسه، وفي الوخز تولد الشمس، هل اشتعلت أيها الجرح المختبئ بين الفخذ والفخذ؟ هل جاءك طائر الموت وسمعت آخر الحشرجة؟ حبلٌ، والعنق يجدل الكآبة وفي الدم سويداء الساعة...

نيويورك ـ ماديسون ـ بارك افينيو ـ هارلم، كسلٌ يشبه العمل، عملٌ يشبه الكسل، القلوب محشوة إسفنجاً والأيدي منفوخة قصباً، ومن أكداس القذارة وأقنعة الإمبايرستيت، يعلو التاريخ روائح تتدلى صفائح صفائح:

ليس البصر أعمى بل الرأس، ليس الكلام أجرد بل اللسان نيويورك ـ وول ستريت ـ الشارع 125ـ الشارع الخامس، شبح ميدوزي يرتفع بين الكتف والكتف، سوق العبيد من كل جنس، بشرٌ يحيون كالنبات في الحدائق الزجاجية، بائسون غير منظورين يتغلغلون كالغبار في نسيج الفضاء ـ ضحايا لولبية، الشمس مأتمٌ والنهار طبلٌ أسود.

**امرأة من الغش..**

ونيويورك التي يعدّها الغرب رمز حضارته ليست إلا طبقة من الرياء والكذب حتى في تماثيلها يقول..

تفتتي يا تماثيل الحرية.. أيتها المفروشة في الصدور بحكمة تقلد حكمة الورد.... الريح تهب ثانية من الشرق تقتلع الخيام وناطحات السحاب...

نيويورك.. امرأة من الغش والسرير يتأرجح بين الفراغ والفراغ.. ها هو السقف يهترئ.. كل كلمة إشارة سقوط.. كل حركة رفش أو فأس.. وفي اليمين واليسار أجساد أن تغير...

ونيويورك ـ نيويورك = القبر أو أي شيء يجيء من القبر

نيويورك ـ نيويورك = الشمس..

تلك هي معادلة الحياة في ملحمة أدونيس وكما أسلفنا فما زالت ندية بهية تشع قدرة على قراءة مسارات التاريخ وما تمضي إليه غطرسة الجنون الأميركي.

الإنسان الآلة...

والحضارة التي يعيشها البشر الآن كما يرى أدونيس هي حضارة مريضة لحظة مرض وسواء سميت بما سميت... فإن الأمر لا يتغير نوعاً وإن تغير في الدرجة بحسب الشعوب والمناطق والظروف التاريخية والاجتماعية..

ويتمثل هذا المرض لدي في أنه لم تعد للإنسان قيمة في ذاته ولذاته بوصفه إنسانا أياً كان موطنه

وانتماؤه.. فقد أصبح الإنسان يقوم بوصفه مجرد وظيفة استخدام مجرد أداة أو شيء.

بل لقد أصبح هو نفسه آلة، وربما صار الانقلاب عليه وشيكاً.. كما تمرد الإنسان على خالقه فإن الآلة سوف تتمرد هي نفسها على الإنسان..

ولهذا فإن الموقف من الحضارة الحديثة يتجاوز موقف النقد إلى إعادة البناء فالإنسان جوهرياً في ضوء ما يحدث في العالم اليوم.. إنما هي إعادة بناء العالم برؤية جديدة.

ويرى أدونيس أن المفارقة التي تصل إلى درجة العبث الفاجع هي أنك تجد في الغرب ثقافة ضدية تعارض تلك الصناعة الآخذة في تحويل الإنسان إلى شيء بين الأشياء بينما تجد في المجتمع العربي من يدافع عن الاصطناع الذي لا يشوه صورة العربي وحسب وإنما يستأصله من ذاته وهويته.

بينما نجد الفرح عندنا بهذا الاصطناع اقتناء اتفاقاً استهلاكاً.. ويراه البعض مظهراً يساويهم بالغرب.. ويطمس الرأس المال العربي تحت هذا الاصطناع، في الغرب ينصرف الرأسمال الإنساني إلى

الإبداع والإنجاز هكذا يزداد تقدماً على حين نحن نزداد انقياداً لاقتناء ما يبدعه استسلاماً له.. إنه بالمعنى الحرفي.. لا يأسر طاقاتنا وحدها وإنما يأسر كذلك رغباتنا ذاتها.

**ديمقراطية القنابل والصواريخ..**

وحين كتب قراءته عن الحرب الأميركية على العراق كان يحذر مما هو قادم وما تفعله واشنطن خدمة للكيان الصهيوني.. وكما قدم الفضاء العربي لهذه الحرب فسوف يقدم لتحرك (إسرائيل) في استسلام عربي وقائي شبه كامل وسوف يخطط له من الآن وصاعداً لتدمير أي نواة لمقاومة الهيمنة الإسرائيلية أي تدمير نواة للحرية...

هكذا يعطى لإسرائيل أن تبدأ بكتابة تاريخ جديد آخر لهذا العالم العربي وتعطى لهذه الولاية التابعة أن تصبح المركز العاصمة، المركز للولايات المتحدة في شكلها الإمبراطوري الجديد... عاصمتها في الفضاء العربي على الأقل.

**صورة العالم غداً..**

وحين يقرأ أدونيس من واقع الحال ما ستكون عليه صورة العالم غداً في ظل ما يجري يبدو الاستنتاج جرحاً فاغراً لا يمكن أن نوقف نزيفه.

البشر كلهم في جهة، والوباء الكوروني في جهة إلا في العالم العربي الإسلامي... شعوبه كلها غرباً شرقاً شمالاً جنوباً مأخوذة بإبادة بعضها بعضاً أفراداً وجماعات وفي مختلف الميادين..

وفي المشهد المستقبلي كما يضيف.. الليبرالية الجديدة في صورتها الأميركية هي فائدة أوركسترا في جوقات هذه الهيمنة الثقافية تجلياتها جميعاً موضوعة في الكيس الإعلامي الذي تسهر عليه هذه الليبرالية باسم العولمة وهي كما تؤكد التجربة عولمة الابتذال الذي يقوم على تمقيد السوق والكم وعلى تمجيد الآلة..

# تعريف بالمؤلف

**حسن الطاهر زروق**

**عضو البرلمان السوداني**

أحد أعمدة الجبهة المعادية للاستعمار في السودان

رئيس تحرير جريدة "الميدان" لسان حال الجبهة المعادية للاستعمار.

كاتب وصحفي اشترك في تحرير أغلبية الصحف الوطنية والديمقراطية في السودان الصراحة والميدان والطليعة. ويضع قلمه دائماً في خدمة الحركة الثقافية ونضال وطنه وحماية سلام العالم.

حكم عليه بالسجن ستة أشهر لنضاله السياسي بعد حوادث كوستا وما زال حتى اليوم هو وسلام رئيس اتّحاد نقابات العمال في السودان والوسيلة سكرتير الجبهة المعادية للاستعمار يدفعون ثمن مواقفهم خلف أسوار سجون السودان.

***

عرفته سنة 1946م، كان أحد أعضاء الوفد السوداني الذي قدم إلى مصر برئاسة الأزهري، وأثناء حكم الخائن صدقي، كانت مصر تغلي وكان السودان يغلي... وقبل قدومه إلى مصر بأيام وجّه صدقي ضربته إلى الحركة الوطنية ممثلة في طليعتها من المثقفين وقادة العمال والطلبة.. وامتلأت سجون مصر بالمناضلين، وأغلقت الصحف ودور النشر التقدّمية، وامتلأت الصحف الاستعمارية بالعناوين المثيرة والأخبار الملفّقة عن المؤامرة الشيوعية الكبرى، واتصالات بعض المقبوض عليهم بالكومنغورم، والخطر الأحمر الذي يهدّد مصر والشرق الأوسط، كان هدف هذه الصحف الاستعمارية تغطية الجرائم البشعة التي اقترفها صدقي، وتضليل الرأي العام عن العدوّ الحقيقي الذي يستعمر أرضه ويدوس كرامته، وينهب ثرواته، ويكبت أنفاسه، وهو الاستعمار البريطاني، وعن العدوّ الآخر الجديد الذي كان يزحف فعلاً، ويرسم الخطط ليحتل بلادنا، والشرق الأوسط كلّه إلى سوق لبضائعه، ومستودع للبارود، وهو الاستعمار الأمريكي.

كانت مصر تغلي، وترتفع صيحات شعبها بنداءات جديدة، وكانت الصحف التي أغلقها صدقي تعبّر عن القيادة الجديدة التي بدأت تشقّ طريقها لتحمل على عاتقها عبء المعركة، وكان أولئك الذين قبض عليهم صدقي يمثلون هذه القيادة النابعة من الطبقة العاملة وحلفائها الفلاحين والمثقفين الثوريين والطلبة، وكانت الطليعة الجديدة تعرف أن الاقطاعيين وكبار البورجوازيين الذين اغتصبوا السلطة بمعاونة السراي يلعبون دور الكلب الحارس والحليف الدائم للاستعمار، ويعرفون أيضاً أن الموقف يتطلّب الإطاحة بحكمهم.

ومن جانب.. كانت المؤامرات تحاك في العلن والخفاء، وأخذت الصحف الاستعمارية تمهّد للجريمة وتعدّ الشعب لتقبلّها، وتتحدّث علناً عن الدفاع المشترك، والتحالف مع الغرب لمواجهة الخطر الأحمر الذي يهدّد بلادنا..

ومن الجانب الآخر.. جانب الشعب وطليعته، انبعثت الشعارات الجديدة ــ الكفاح المسلح لطرد

المستعمر ـ الجبهة الوطنية لتوحيد القوى الشريفة ضد العدو ـ التحالف مع معسكر السلام والحرية بقيادة الاتحاد السوفييتي ـ الكفاح المشترك مع الشعب السوداني.

وفي تلك الأيام المجيدة ظهر شعار حق تقرير المصير للشعب السوداني، واحتضنته القوى الثورية في مصر والسودان، وكان شعار الكفاح المشترك يسير جنباً إلى جنب مع شعار حقّ تقرير المصير كأساسين لبناء التحرّر الحقيقي لكل من مصر والسودان.

***

في تلك الأيام التي أصبحنا نرجع إلى الوراء لنتذكّرها والتي تمخّضت تضحياتها وهباتها المجيدة عن الانتصارات التاريخية التي تحققت أخيراً في كل من مصر والسودان، وأدّت إلى طرد قوات الاحتلال من أراضيهما، في تلك الأيام قدم حسن الطاهر زروق إلى مصر وعرفته لأول مرة..

ومنذ اللقاء الأول تأكّدت أن حسن الطاهر زروق ذا الوجه الباسم والملامح الإنسانية التي تذكّرك ببول

روبسون يسير معنا ومع الناس البسطاء، وفي طليعتهم في المسيرة الكبرى للبشرية من أجل حياة سعيدة للإنسان وسلام دائم للعالم..

***

كان الوفد السوداني برئاسة الأزهري يعسكر في فندق شبرد، ويقضي ساعات اليوم في المقابلات والحفلات، وكان حسن الطاهر زروق يعسكر مع الشعب المصري ويقضي ساعات النهار والليل مع المناضلين ينقل لهم نضال شعبه ويسمع منهم أخبار الصراع المحتدم، كان الأزهري على رأس الوفد السوداني الذي يتصل بالحكومة، وكان زروق على رأس وفد آخر غير رسمي، هدفه تقوية أواصر الكفاح المشترك مع الشعب المصري.

وشهد الطريق من ميدان العتبة الخضراء في القاهرة إلى ميدان باب الخلق حيث دار الكتب أيّ تراث الثقافة وسجن الاستئناف أيّ تراث جرائم المجتمع وضحاياه، شهد هذا الطريق حسن الطاهر زروق وهو يسير على قدميه مرات كل يوم ويحمل معنا الطعام إلى المناضلين خلف الأسوار، ولم يكن أحدهم يعرف أن

عضواً في الوفد السوداني قد فضّل القيام بهذا الواجب على حضور الحفلات التي كان يقيمها لهم صدقي في ذلك الوقت..

***

واليوم، وبعد حوالي عشر سنوات، والسودان الذي قرّر مصيره وانتزع سيادته يقف على قدميه بين الشعوب ليؤكّد وجوده.. واليوم والشعب المصري يمدّ ملايين الأيدي للشعب السوداني ليؤكد شعار الكفاح المشترك وروابط الأخوّة التي قامت على دمنا الذي اختلط في معارك الماضي.. اليوم وقد تحققت أمنيات عزيزة للشعب السوداني الذي يسير في الطريق الظافر لتدعيم سيادته القومية وبناء مجتمع ديمقراطي يضمن لملايين الكادحين الحرّية وحياة لائقة بالبشر، اليوم يقف حسن الطاهر زروق مع عدد من رفاقه الأبطال خلف قضبان السجن في الخرطوم، لأنه من النوع الذي يجد الطمأنينة والراحة والسعادة في أن يؤدّي واجبه نحو ضميره وشعبه..

***

إننا لم نحمل طعاماً إلى حسن الطاهر زروق في سجنه، إننا لم نفعل الشيء نفسه الذي قام به في مصر، وما زال يهزّ مشاعرنا كصورة من أنبل صور التضامن بين الأحرار، لقد فضّلنا أن ننقل إليه وإلى شعبه السجن.. والبطش.. كل هذا لم ينل من أرواحنا.. فأنا، مثل كل الناس البسطاء أرى أمامي المستقبل المشرق لوطني".

***

واليوم، ومصر تلعب دوراً إيجابياً في السياسة الدولية، وتدعم علاقاتها مع جميع الدول على أساس مبادئ احترام السيادة والمنافع المتبادلة ونبذ التكتلات العدوانية وحماية سلام العالم.

اليوم، ومصر تدعم روابطها السياسية والاقتصادية والثقافية مع الدول العربية التي تتحرّك شعوبها ككتلة موحّدة لانتزاع مصيرها وللقيام بأنبل دور تاريخي وهو تحطيم مؤامرات الاستعمار في أخطر مركز يعتمد عليه لحشد وقود المدافع وإثارة الحرب، اليوم، يتطلّع الشعب المصري إلى الشعب السوداني

الشقيق، يتطلّع إلى النضال المشترك الذي خضناه معاً وإلى الأماني والمصالح المشتركة التي تربطنا معاً، وهو واثق أن الانتصارات التي أحرزناها ستؤدّي حتماً إلى تدعيم الروابط بيننا.

إن الشعب المصري الذي بذل التضحيات الغالية لتحرير أرضه لا ينسى أبداً أن دماء بعض الشهداء السودانيين قد اختلطت بدماء أبنائه في معارك حريته، وهو لذلك يقدس حق الشعب السوداني في تقرير مصيره، ويبتهج لإعلان استقلال السودان وسيادته، ويترك للشعب السوداني نفسه كامل الحرية في تحديد مدى تعاونه وارتباطه بالشعب المصري على هدي تجاربنا المشتركة الماضية، وأيضاً على هدي المؤامرات الاستعمارية التي ما زالت تحاك ضد هذه الانتصارات التي أحرزناها، وضرب الانتصارات الأخرى التي سنحرزها في المستقبل إذا دعمنا الروابط السياسية والاقتصادية والثقافية بيننا..

***

إننا نحيي بهذا الكتاب الشعب السوداني ممثلاً في أحد أبنائه، ونتطلع إلى هذا الشعب الشقيق بحب وتقدير وثقة في مستقبله، كما تتطلع إليه سائر الشعوب المُحبِّة للسلام وهي تنتظر الدور الذي سيقوم به لتدعيم استقلاله الوطني وحماية السلام العالمي.

"إبراهيم عبد الحليم"

# نزَعوا السّقف من فوقنا

## للكاتب الألباني "إليكس كاتشي"

لم يكن يغطي أرض الغرفة سوى تراب، وكانت بها نافذة واحدة صغيرة، تفتح على المنزل الجميل الذي يملكه الآغا في الجانب الآخر من الفناء، كنا نشعل ناراً وسط الغرفة، وأحياناً نفعل ذلك نهاراً لكي نحصل على ضوء قليل. فالمكان مظلم جداً. ولكن لم يكن هناك مخرج للدخان، وما زلت أذكر تماماً كلمات أبي التي كان يردّدها بمرارة، وكانت تثير في نفسي حقداً أعمى لقوى شريرة لا أعرف مصدرها ولا أعرف من أطلقها.

تساءل أبي: "هؤلاء الآغوات الذين يعيشون على عرقنا.. ألا يشبعون أبداً؟" ثم أرسل زفرة طويلة من صدره النحيل الأسود الذي يبدو أنه يتمدد بصعوبة، وجذبني نحوه من يدي، وأخذني بين ذراعيه، وقال: "لا تنسَ أبداً ما نقاسيه، وعندما نهرم، عليك أن تُعنى بنا ولا تتخل عنا، لن نطلب كثيراً، كسرة خبز فقط في كبرنا".

وعنـد ذلـك بـدأت أبكـي، فضـمتني أمـي إلى صدرها، وقبلتني عدة مرات، ولكن سعالاً مخيفاً جعل يهزها حتى لم تعد تقوى على الإمساك بي.

قال أبي: "اتركيه ولا تكدري قلبه الصغير".

ظلت الدموع تسيل على خدي.. وما زلت أذكر هذا كأنـه بـالأمس القريـب، ومـا زالـت ذكـراه تعـيش في نفسي: تلك الغرفة التي لا أرضية لها، والظلام الكثيف الـذي يفزعنـا، وأبـي مسـتلق علـى حصـير، وأمـي زهـاء سـاعة تجاهـد كـي تحصـل علـى أغصـان خضـراء مـن الزيتـون لتوقـد نـاراً، والنافـذة الصـغيرة تبـدو لـي كعـين ميت تحدق.

كنـا نعـود مـن العمـل عنـد حلـول الليـل، وعنـدما تمطر، نوقد ناراً كبيرة وسط الغرفة، ثم نخلع ثيابنا المبتلّة ونركـع حـول النـار لنجففهـا، وكمـا قلـت، فلـم تكن هناك مدخنة، فالدخان يذهب بأبصارنا وتسبح خـدودنا في الـدموع ويفـيض حقـدنا الأسـود علـى الآغـا والدخان الذي يعمينا.

وبعد ذلك نصيب طعامنا الحقير.. نلتهمه سريعاً كالذي لم يطعموا منذ أمد بعيد، وفي ساعة متأخرة من الليل، يخرج الآغا من منزله وقد امتلأ جوفه بالكونياك فيقف عند بابنا يصيح:

"اسمعوا أيها الناس هنا: استيقظوا مبكرين صباح الغد! يجب أن تكونوا في (ليايتوف) قبل طلوع الشمس، ولا تتركوا حبة زيتون واحدة تضيع!".

كان لضحكه المخمور وقع المدية في قلبي، فنهتف: "بالتأكيد" وأي كلمات غير هذه كانت تضيع في اصطكاك أسناننا فالبرد القارس يرعشنا.

رقدنا على أرض الغرفة الترابية، وفي بيت الآغا نسمع غناء وأصواتاً أخرى كأن ذلك في حلم طوال الليل، حتى يعود ثانياً لإيقاظنا، فنخرج للعمل وما زال الوقت ليلاً.

اشتغلنا له طوال ذلك الشتاء والجوع يعذبنا، وأحياناً نصرخ من الغضب ويزداد الحقد في قلوبنا، وأحياناً يقول أبي:

"سيأتي يوم ننال فيه نصيبنا من السعادة".

فنصمت أمي وأنا.. لنفرض أن الآغا قد سمعنا؟ ماذا يصنع بنا إذا سمع مثل هذا الحديث؟ سيأخذ عصاه في يده، ويأتي إلى بابنا صائحاً:

"تعالوا!.. اخرجوا من هنا!.. لا تجعلوني أراكم ثانية".

فأين نذهب حينئذ؟ من سيئ إلى أسوأ، والناس كلهم كانوا سيئين، تستطيع أن تذهب إلى كل أركان الأرض، ولكنك لن تجد شخصاً مهذباً واحداً، لقد اكتشفنا هذا عندما ارتحلنا مرة في الليل، فأرسل (لوتو) رجال البوليس وراءنا ليقبضوا علينا، إنك لا تقدر أن تنسى شيئاً كهذا، فالجروح التي تحملها أجسامنا خير شاهد عليه.

كان الثلج ينزل، وكان البحر يزمجر، واكتسحت (فالونا) عاصفة شديدة ودخان خفيف يتسلل من مدخنة بيت الآغا، ومن وقت لآخر تظهر عند النافذة مدام مارجريم القبيحة تستنشق الهواء النقي، ويمكنك أن تسمع ضحكاتهم.

كانوا يأكلون ويشربون حتى ينتفخوا كالدود فيستلقون على سجاجيد جميلة الصنع ليناموا..

ولكن عند منتصف الليل، خرج الآغا محمر الوجه تكاد عيونه تطفر، ونادى على أبي في هياج:

"اخرج إلى الفناء حتى أرى وجهك! اخرج لأقول لك اذهب من هنا!"

جذب أبي غطاء ممزقاً فوق كتفيه بيدين تجمدتا من البرد، وخرج إلى الفناء لا تكاد قواه تسمح له بالكلام، يصطك فكاه، ولا يقوي على الوقوف، وصاح الآغا:

"أريد منك أن تعمل بنشاط أكثر.. فأنت خادمي، فاهم؟"، ثم جعل يضحك كمن أصابه مس، فقال أبي برقّة:

- "نعم.. بالطبع".

وفي غرفتنا كان الهواء البارد يدخل من شقوق في السقف ومن فتحة كبيرة في الحائط.

قال أبي:

ـ "إن الأحوال سيئة".

ظلت أمي تسعل، ولن أنسى أبداً ذلك السعال، طفرت الدموع من عينيها، وكان جبينها وخداها يغمرهما العرق، وأنفاسها تتردد ككور الحداد، لم أستطع النوم، وبقيت راقداً أنظر إليهما في قلق، وقال أبي:

ـ "كفي عن السعال! إن ذلك يقتلنا، تسعلين طوال اليوم، لا صبر لي على هذا، لا أطيق أن أظل أستمع إليك تسعلين بهذه الصورة"، فقالت:

ـ "كأني أفعل ذلك عن عمد، ألا ترى أنه يحطّمني؟".

أزالت العرق عن وجهها والدموع من عينيها، ثم استلقيا لينام، ولكن بعد دقائق قليلة جلست ثانياً، وأخذت تسعل من جديد حتى تقطعت أنفاسها، فتساءل أبي:

ـ "ألا نجد الهدوء أبداً؟ لا أستطيع أن أفهم هذا، نشتغل كالمغضوب عليهم، وفي النهاية لا نقدر أن ننام في هدوء، ولا نجد حتى كفايتنا من طعام".

فسألت: ـ "هل كل أشجار الزيتون هي ملك للآغا يا أبي؟"

ـ "هكذا يقولون وهو يدعي أنه قد ورثها عن أبيه، وأنه يملك كل حجج تملكها، ولكنه يقول أيضاً إنه قد نال كل ما يملكه بعرقه، وأنه قد تكبد في ذلك مصاعب شديدة".

هز أبي رأسه في حيرة.

ـ لا أعرف بالضبط كم يكون قوله هذا صحيحاً، إنني لا أعرف!

ـ "ولكن ألا نشتغل نحن بنشاط أيضاً، ونعاني مشقات؟"

ـ "نعم يا ولدي نحن نشتغل أيضاً، ولكن لغيرنا."

لف أبي سيجارة في ورقة جرائد قديمة ثم استمر يقول:

ـ "سأقول لك شيئاً يفتح عينيك، في ذات مرة، كنت أعمل في قطعة أرض، ورأيت أن أزرع خضراوات، ولكن وجهاء القرية لم يسمحوا لي بذلك.. وأينما ذهبت تجد الشيء نفسه، فالأغنياء جميعهم متشابهون".

لم أكن أتبين وجهه بوضوح، ولكنني استطعت أن أحكم بأنه كان يريد أن يبكي، ولكن لم تبق له دموع.. نصب وبكاء.. ليست هذه حياة جديرة بإنسان، تعمل، ورغم ذلك تظل جائعاً، وفوق ذلك عليك أن تتحمل إهانات الآغا وتهديداته، كان أبي يهم بأن يسترسل ولكن سعال أمي منعه ذلك،

قال أبي: "سوف تدفعيننا إلى الجنون، إننا نعمل كالعبيد طول اليوم، وفي الليل لا نجد لحظة من نوم".

وفي بطء جذب دخان سيجارته، ورقت عيناه، فقبلني على جبيني، ومس شعري بيده المتحجرة، ثم قال:

ـ "اسمع.. حاول أن تتذكر ما سأقوله لك، فقد يفيدك هذا في يوم من الأيام.. من يدري؟ كنت أعمل في طاحونة لزيت الزيتون، أعمل طول اليوم، وفي الليل حفرت لنفسي مرقداً وسط كوم الزيتون المهشم، ونمت فيه طلباً للدفء.. انظر هنا إلى ظهري"، ثم أخذ يدي ووضعها على آثار جروح عميقة على كتفيه، قالت أمي:

ـ "إني منهكة، فاتركني أنام قليلاً"، فقال أبي:

ـ "نعم بالطبع".

أشعل سيجارة ثانية، ومن خلال النافذة الصغيرة تسلل ضوء الفجر النحيل، وظل أبي يتكلم بصوت منخفض:

ـ "بالقرب من الطاحونة كان هناك نهر، وكان من عادة الآغا أن يأتي إلى هناك ليصطاد البط البري، فأخذني معه، واتخذني كلب صيد، فكنت أخوض في الماء حتى عنقي لأمسك الطيور التي أصابها، وكاد التيار الشديد أن يجرفني.

أصغيت بانتباهٍ لأبي، وكان جسدي كله يحسّ بالألم لوقع كلماته، وقد أنشب الأسى أظفاره في فؤادي، وحتى هذه اللحظة، مازال هذا يعيش في ذاكرتي.. قال أبي:

ـ "هناك أشياء أخرى أريد أن أقصها عليك عندما يحين الأوان، لسنا وحدنا الذين نعاني، من يعرف عدد التعساء الآخرين الذين يشقون كما نشقى؟"،

في ركن مظلم خلف الباب، ألقينا بأشياء لم يعد لها أي نفع: إناء ماء مثقوب، غطاء صندوق، صديري قديم ممزق وبعض المسامير الصدئة. كنا نجلب الماء في جرة قديمة نأخذها معنا إلى أي مكان نذهب لنعيش فيه.

وعلى حبل يمتد بين طرفي الغرفة علقنا غسيلنا وبعض القماش القطني المشجر الذي ابتعناه من الباعة، الجو ألين في الليل، ونحن عائدون من الشغل.

كان ذلك الشتاء لا آخر له، المطر ينهمر طول النهار وطول الليل، في خارج غرفتنا وفي داخلها، أين تجد ملجأ؟ وأنت مطارد من هؤلاء الذين يملكون الأرض؟

غرفتنا الصغيرة أشبه بخنّ الدجاج، وحتى في فصل الربيع لا بد أن ترهق عينيك إذا أردت أن ترى بوضوح، وكان البؤس يفيض منها، وكأنها القريب الفقير لبيت الآغا الذي كانت له نوافذ كبيرة وشرفات رائعة ومدخنة ارتفعت عالياً فوق سقف القرميد الأحمر.

كان كل شيء حولنا يوحي بالخطر، نشعر بالخوف عندما نطل على فناء مزرعة الآغا، وكنا نرى كل أولئك الناس كأشباح سوداء.

في ذات يوم غمغم كريستو ذو الشوارب الطويلة والعيون الرقيقة كعيون الأطفال وقال:

ـ "لا تخافوا.. سنغير كل هذا في يوم من الأيام".

كان كريستو يعمل لآغا آخر بالقرب منا، ولكننا حينما نتقابل كان يتضح أننا نفكر بصورة واحدة، ونقول كلاماً متشابهاً، يبدو أن الناس التعساء يتشابهون في كل مكان كما تتشابه أنوف الخنازير. قال كريستو:

ـ "إن العالم سيتغير، إنني أعرف هذا، فقد أنبئت أنهم هناك بعيداً في روسيا قد طردوا الآغوات، والناس يشتغلون لأنفسهم، وسيكون الشيء نفسه هنا". فأجاب أبي:

ـ "أنت على حق، فقد سمعت أنا أيضاً، بكل هذا، ولكن الخنزير لا بد له من رصاصة".

ـ "نعم، رصاصة تصيب رأسه تماماً حتى لا ينهض مرة أخرى".

قالت أمي:

ـ "كفوا عن هذا الحديث، فإذا سمعنا أحد فسوف نطرد، ولن نجد أي مكان نعيش فيه".

ثم عجزت عن الاستمرار بسبب السعال وقد تلونت الخرقة التي تستعملها كمنديل، ولكن أبي قال لكريستو:

ـ "لا أحد غيرنا يعرف ما نقاسي، والغرباء عجزوا عن إدراكه فعندما نقول للآغا: "بالتأكيد لك ما تشاء وما عليك إلا أن تأمر.." الخ ألا ترى أن ذلك يجعله فقط يجبرنا على أن نعمل أكثر؟ قل لي، ماذا كسبت طوال هذا الشتاء؟".

ـ "لا شيء.. إن كل قطعة خبز آكلها تخصم من أجري، وعندما أطلب من الآغا مدداً من الذرة يثور غاضباً فيقول: "ماذا؟ مدداً آخر؟ أبهذه السرعة التهمت ما أخذته آخر مرة؟ إنك تأكل كثيراً!"

وسأل كريستو:

ـ "هل سمعت أن شيئاً خطر قد حدث قريباً؟ إنني لا أذكر اسم الرجل، ولكنني أخبرت أنه جاء من بلدنا، وهو كغيره، منا، يعمل لحسن آغا، ولكنه في ذات يوم تشاجر معه، ويقولون إنه ضرب الآغا بعصا على رأسه، ولهذا فقد ألقى البوليس القبض عليه في الحال، وألقوه في السجن، أما زوجه، وهي من أقاربه، وأطفاله فقد ألقى بهم بعيداً، هذا كل ما أعرفه عن الموضوع".

ـ "ماذا كان يريد؟ ولماذا لم يلتزم الهدوء؟"

ـ "أحياناً يفرغ صبرنا، ويبلغ حده، وقد جاءت اللحظة التي لم يستطع فيها أن يسيطر على نفسه أكثر من هذا".

فسألت أمي:

ـ "ما مصير أبنائه ومن يطعمهم؟"

فأجاب كريستو:

ـ "كلنا سنساعدهم بالقليل الذي لدينا، سنشركهم في خبزنا كما يفعل الإخوة".

قال أبي:

ـ "هذا ما يجب أن يكون، علينا أن نساعد بعضنا، أذكر يومَ أن صفعني مدير أعمال الآغا على وجهي حسناً.. ولكن الباقين لم يقفوا هناك مكتوفي الأيدي، ولو كنت وحدي لفتك بي، لأنه كان أقوى مني بكثير، فحالاً وقف إلى جانبي عامل من (فاير) كما أذكر، فألقينا بالمدير في الترعة، وانصرفنا، وأيدينا متشابكة".

كم مرة سمعت أبي يردد هذه الحكاية! يبدو أنها قد حفرت في ذاكرته إلى الأبد، فقالت أمي:

ـ "نعم هذا ما حدث، ولكن أتذكر ما حل بنا بعدها؟".

قال كريستو:

ـ "ماذا حدث؟"

ـ "طردنا من المزرعة، وبقينا شهراً بلا عمل".

قال أبي:

ـ "تماماً، ولكن على أي حال فقد فعلت ما أريد لأول مرة في حياتي!" فانفجرنا ضاحكين نحن الأربعة، وحتى أمي شاركتنا الضحك، ولكن سرعان ما غاض بشرها وحكت لنا ما حدث لها:

ـ "أذكر ذات يوم أن الآغا قد انهال علي بشتائمه القذرة: "حيوانة نتنة.. مصابة بالقمل.. و.." ثم خرجت زوجه من منزلهم، وبدأت هي ـ "وفلاحة وسخة... لم تغتسلي في حياتك... لا تعرفين ما معنى الحياة؟"

واستمرت بهذه الصورة حتى أدركها التعب، وبعد ذلك عادت إلى بيتها الجميل"، كانت أمي ترتعش لهذه الذكريات، فقال لها أبي:

ـ "لم أسمعك تتكلمين بكل هذه المرارة من قبل يا أماه.. فما هذا!" فسألت:

ـ "هل أنا قذرة؟ أنا قذرة لأنني أعمل من أجلها طول الليل، ومن أجل أن يأكل وجهها القبيح..؟"

قال كريستو:

ـ "إننا لا نشتم الناس كما يفعلون هم، حسناً، دعهم يقولون ما شاؤوا"

أخذنا نتحدث زمناً طويلاً وهذه أول مرة تحدثنا فيها عن الأشياء التي تجول بخواطرنا والقريبة من نفوسنا، كنا نحاول أن نعرف سبب ومنشأ مصاعبنا وشقائنا، من نلوم عليها؟ أحياناً يخيل إلينا أن كل هذا مقدور علينا، ولا يمكن أن يدفعه شيء، ولكن لماذا قدر علينا؟ ولماذا نكون الضحايا؟ وأي خطايا ارتكبنا؟

قال كريستو:

ـ "كلا لا شيء من هذا من صنع القدر، فكروا لحظة، هل كنتم تقاسون هكذا إذا عملتم لأنفسكم؟".

أجاب أبي وأمي:

ـ "طبعاً لا".

أخذ الدم المتجمد في عروقنا يتدفق من جديد، وكأن قوة جديدة تقف بجانبنا وصوتاً في أعماقنا يقول: إن مصيركم لهو في أيديكم أنتم!

ثم نهض كريستو، وألقى عباءته البالية على كتفيه، وابتعد، ثم اختفى في ظلام الليل المطبق حولنا.

في جحرنا كانت الدنيا تمطر، فرقدنا نصيب شيئاً من النوم، ولكن الآغا كان قد أرسل بالفعل خادماً إلى بابنا، وسمعنا صوته:

- "استيقظوا! هذا أمر الآغا، قد حان وقت الذهاب للعمل".

لم يكن الوقت إلا بعد منتصف الليل بقليل.

في اليوم التالي جريت إلى غرفتنا باكياً، فقد ضربني (زينيل) ابن الآغا على رأسي بقطعة من الحديد حينما كنت في الفناء.. وبمجرد أن ضربني اندفع إلى منزله ثم خرج إلى الشرفة وأخرج لي لسانه.

- "تستحق هذا أيها الوسخ النتن الذي لا يملك حتى الحذاء".

فصحت به، وأنا ألوح بقبضتي:

-"فقط انزل إلى هنا".

- "كلا لن أنزل".

وأخرج لسانه ثانياً، وسخر مني.

بقيت لحظات قصاراً جالساً عند بابنا على حجر أسود يكاد يغمى علي، وأرسل بصري نحو الحقول راجياً أن أرى أمي وأبي عائدين.

ولكنني لم أرَ أحداً، وحل الظلام خارج الغرفة التي كنت أسمع القطط داخلها تطارد الجرذان وتحدث ضوضاء كثيرة، وتسرب ضوء أصفر من شقٍّ في الحائط، وفي غرفتنا الخالية وذلك الفناء الذي يشبه قبراً يضمنا أحسست كأنني غريب في أرض مجهولة بين ألوف من الناس لا أرواح لهم، وعندما عاد أبواي من العمل سألتني أمي:

ـ "لماذا تبكي؟"

ـ "ضربني (زينيل) على رأسي بقطعة حديد".

فقال أبي:

ـ "ما أشبه الابن بالأب، وهز رأسه ببطء.

فأخذني كل واحد منهما من يد، وأدخلاني حجرتنا، وجلسنا الثلاثة حول النار، وقد جمع بيننا

الأسى الذي أمضَّ قلوبنا، ولكن الغضب كان يملؤنا، بقينا صامتين أمداً طويلاً.

ترامت إلينا صرخات من كوخ (آدم) الذي يقع خلف منزل الآغا في الفناء الآخر، كان هذا يحدث دائماً في الليل عندما يعود (آدم) وزوجه من العمل، وسرعان ما يبدأان في الشجار، وفي بعض الأحيان يخرج النساء الساكنات في منزل الآغا إلى الشرفة يتسلين بالمشهد ويضحكن بصوت عالٍ جداً حتى يصل إلينا ضحكهن حيث نجلس.. قال أبي:

- "إن (آدم) رجل طيب في الحقيقة، ولكن الإنهاك في العمل قد أتلف أعصابه، وغرفتهم أكثر سوءاً من غرفتنا".

فقالت أمي:

- "لا حيلة في هذا، فالذين يملكون، يفعلون ما شاؤوا، ونحن تحت رحمتهم، يدفعون لنا ما يروق لهم".

ركع أبي لينفخ في النار، فامتلأت الغرفة بالدخان حتى تعذر أن ترى الأشياء بوضوح. قال أبي:

ـ "لا تبتئسي يا زوجي، سيأتي يوم نصبح فيه كلنا سعداء، ألا تذكرين ما أخبرنا به كريستو؟".

ـ "قد يكون ذلك صحيحاً، ولكننا في الوقت الحاضر نشقى، وكريستو نفسه يعاني الشقاء.. انظر إلي إن سعالي يمزقني، ولا نملك مالاً لشراء أي دواء، وابننا مريض أيضاً تفترسه الحمى، ألا تستطيع أن ترى ذلك؟"

ـ "أتظنين أنني عاجز عن رؤية هذا؟"

أخذني أبي بين ذراعيه في حنان، وقبل أهدابي برقة عظيمة، وما زلت حتى هذه اللحظة عندما أستعيد ذكرى تلك الأيام أشعر بأثر شفتيه فوق عيني.

قال أبي:

ـ "لن تظل الأحوال بهذا الشكل دائماً، أما أنت وأنا، فمن الممكن أن نموت ونحن في هذه الظروف، ولكن ليس معنى ذلك أن هذا سيكون مصير ابننا، فهو سيشهد أياماً أفضل، إلى متى يستمر ظلم الآغوات؟ ألا تذكرين ما قال كريستو عن روسيا؟ فهناك قد طرد الآغوات واستطاع الفقراء والمعذبون أن يتنفسوا بحرية".

جلست وأمي صامتين، وأشعل أبي سيجارة بورقة من أوراق الصحف، وبعد أن جذب نفساً طويلاً تابع حديثه:

ـ "في ذات مرة كنت أعمل أجيراً في جزيرة (كورفوا)، ومهما أجدّ في العمل كنت لا أجد ما يكفيني من طعام، لذلك أخذت أتسوّل من باب لباب، ودائماً كان الناس الفقراء هم الذين يجودون عليّ بكسرة خبز، أما في بيوت الأغنياء فكانوا يخرجون إلى الباب، وينتهرونني: "لا شيء لك عندنا، اذهب، واشتغل أيها الكسول!" هذا ما كانوا يقولون لي، أنا الذي يشتغل كالعبيد كل اليوم وجزءاً من الليل".

"ثم التفت نحونا، كأنه يرجو أن يسمع تعليقنا على هذا.

فقالت أمي:

ـ "دعك من هذا، وما جدوى نبش الماضي؟ يجب أن نفكر في الحاضر ولن يمضي وقت طويل حتى يكون عملنا هنا مع الآغا قد انتهى، فماذا نصنع بعد هذا؟ وأين نذهب؟"

ـ "سنجد عملاً في مكان آخر فإذا اعتبرنا أننا نعمل طول اليوم لقاء قطعة خبز فلا بد أن يستخدمنا أحد الناس. وإن قليلاً من الخبز اليابس لن يكلف الآغوات شيئاً، ولهذا لا تقلقي فنحن دائماً نستطيع أن نجد من يمكن أن يعطينا مثل هذه الأعمال التي نقوم بها".

ثم أطلق ضحكة مغتصبة، وكشر عن أسنانه كأنه يهم بأن يعض شيئاً بغضب وحقد.

ـ "لكي ينضج الأرز نحتاج ماء ووقت، إننا نتكلم ولكن من يسمع.. أذكر ذات يوم أنني قلت للآخرين: "تعالوا نتحد ونمنع الآغوات من أن يفعلوا بنا ما يريدون.. ما أطول الساعات التي نشتغلها.. كما أنه علينا أن نتحمل الخسائر إذا ساء الجو، كلا إن هذا لا يكون؟ هذا ما قلته، ولكنهم لم يعيروني التفاتاً، وكان يبدو عليهم الخجل".

قالت أمي:

ـ إنهم خائفون فالآغوات ليسوا بأغبياء، وحالاً يطردونك بعيداً، يجلونك عن غرفتك ويمنعون عنك العمل حتى تموت جوعاً".

ـ "ولكن هل تظنين أن حياة كهذه تستحق أن تعاش؟"

ـ "فقط علينا أن نقفل أفواهنا ولا حيلة لنا في هذا".

ـ "كم بقي لنا في الحياة أنت وأنا، أليس من الأفضل أن نعيش حياة أقصر، ولكنها كريمة، من أن نعيش في كل هذا الشقاء؟ من يعرف معنى المصائب أكثر منا؟ ولكننا إذا اكتفينا بأن نقعد مكتوفي الأيدي كجماعة من البلهاء، فإن أبناءنا سيقاسون مثلنا، أتذكرين القصة القديمة.. حكاية شجرة البلوط؟ قالت الشجرة:

"سوف أكبر وأكبر حتى أبلغ السماء، لا أحد يملك قوة تمنعني من هذا، ولكن فأساً كانت تقف قريباً منها سمعت قولها، فقطعت شجرة البلوط واجتثتها".

قالت أمي:

ـ "ما أبرعك في الكلام.. ولكن ماذا في وسعك أن تصنع في هذا الأمر؟"

ـ "وماذا أستطيع وحدي؟"

ـ إذاً يمكنك أن تكف عن هذا، لقد تحدثنا في كل هذا مراراً من قبل، فماذا جنينا من الكلام؟"

ولم تقل أمي شيئاً بعد ذلك في تلك الأمسية، ثم رقدت لتنام بعد أن سعلت كثيراً.

قال أبي ملاطفاً لها:

ـ "حسناً... حسناً... ولكن كم يدوم هذا؟ إننا نعرف أن كل واحد حتماً سيفهم المسألة في النهاية.. ولكن رغم هذا علينا أن نحاول أن نفهم، فالرجل الأريب هو الذي يعرف كيف يخرج حصانه من الرمل الذي تسوخ فيه الأقدام".

استلقى على وسادته المحشوة بالقش ونام، فلاحظته مدة وكان حاجباه معقودين قليلاً وعيناه نصف مغمضتين كأنه يراقب شيئاً عن بعد. ثم جاء دوري؛ لأنام ولكن لم يدم ذلك طويلاً إذ قرع وكيل الآغا بابنا:

ـ "استيقظوا! قوموا! لقد ضاع الوقت".

وكان الديك لم يصح بعد.

احتاج الآغا لمزيد من العمال.. وفي ذات يوم قال لأبي:

ـ "ألا تحضر ابنك معك؟ إننا سندفع له أجراً حسناً".

فأومأ أبي برأسه قائلاً:

ـ "نعم إنني أعرف ذلك".

وهكذا بدأت أعمل بحالتي تلك بأقدام حافية وقميص ممزق، والآن وقعت تحت سوط الآغا.

من الصباح الباكر حتى غروب الشمس كان مدير أعمال الآغا يراقبنا كحارس السجن، وكان دائماً يستحثني لأنني كنت أصغر العمال سناً فيقول:

ـ "هيا إلى العمل.. من أجل هذا يدفع أجركم".

الشتاء قاس في (فالونا)، وعلى يدي الصغيرة كنت أرتكز على الأرض الباردة، ولكنني كنت مضطراً لأن أعمل حتى أعيش، وهكذا أخذت أجمع الزيتون في مزرعة الآغا.

أما والداي فقد عجزا عن توفير حاجياتي، ورغم أننا نحن الثلاثة كنا نعمل لم نستطع أن نوفر لأنفسنا طعاماً كافيا، وفي الأمسيات نعود إلى غرفتنا الباردة المظلمة بأرضنا الترابية الواقعة أمام منزل الآغا الغارق في الترف، وكان الآغا يبدو كأنه يراقبنا على الدوام، ويملأ قلوبنا خوفاً.

وأحياناً يأتي الآغا إلى الحقول ممتطياً حصانه إلى حيث كنا نعمل، وعادة يلعننا دائماً في هياج، ويتهمنا بالكسل، ثم يلتفت إلى (جمال) مدير أعماله، وهو رجل مسن جاحظ العينين محمرهما له شارب كث:

ـ "لا تتركهم ينتهون حتى تظلم الأرض تماماً".

وتتكرر القصة في كل يوم، . نصل إلى مكان عملنا والظلام ما زال منتشراً، ولا نبدأ في العودة إلى بيوتنا إلا بعد أن يصبح العمل غير ممكن لظلام الغسق.. ثم نمشي ونمشي.. والطريق من (ليامبيلوف) إلى (فالوفا) طويل، فنظل نمشي ولا يرافقنا سوى نعيق الضفادع المستمر، والجوع الذي يعصف بنا، وعندما نصل المدينة نكون قد هلكنا من التعب، ساعات لا

حد لها والطريق الطويلة في العودة ثم كسرة خبز جافة من الذّرة: هذه كل حياتنا.

قال الآغا لجمال:

ـ "في هذه السنة، على كل شخص أن يجمع قنطاراً من الزيتون، سيكون المحصول جيداً ويجب ألا نفقد منه حبة واحدة".

وإخلاصاً لسيده، لم يترك لنا جمال لحظة واحدة للراحة، فنملأ الزكائب ونرفعها إلى العربات، فيعصر الزيتون، وتملأ منه جرات كبيرة، ويحفظ في مخازن الآغا. ولكننا ما كنا نعرف طعم زيت الزيتون.

في يوم من الأيام كما أذكر عندما كان البرد قاسياً بدرجة شديدة أخذت سيقاني تتورم وكان الألم لا يطاق، فأخذتني أمي في ذراعيها وضمتني إليها وكانت تنتحب وتتحدث إلي مواسية في صوت خفيض حتى لا يسمع المدير، وحين وقعت عيني على دموعها أملأ قلبي بالكراهية، ولكن لم أكن أعرف لِمَنْ هذه الكراهية، وقالت:

ـ "لا بدّ أن تكون شوكة قد دخلت في رجلك، وأمك ستخرجها لك عندما نصل إلى المنزل، ولا أستطيع ذلك الآن لأن صاحب العمل يراقبنا".

ألقت نظرة جانبية نحو جمال، وكان هو لا يهدأ ولا يرتاح، منتصباً على الدوام كعصا معوجة يراقب كل فرد، ويدخن سيجارة طويلة بعد الأخرى، وأحياناً يصيح بنا أن نعمل بنشاط أكثر.

في الحقول دائماً أعمل بين أمي وأبي، ونادراً ما نتحدث لسبب واحد: لئلا يسمعنا المدير، وأيضاً لأننا نعمل بقوة هائلة، وثانياً عن أي شيء كنا سنتحدث؟ والكلمات القليلة التي ننطق بها كانت في العادة كلمات مريرة يقول أبي:

ـ "سوف نفرغ من العمل هذه الليلة في وقت متأخر جداً، وليس لدينا عشاء".

أو تقول أمي:

ـ "ألم تقدر أن تشتري، ولو قليلاً من الزيت؟ إن تلك الأغصان الخضراء تعمينا تماماً بدخانها".

وأحياناً يمزق الهواء غصناً من فوق شجرة زيتون، وعند ذلك يتقدم المدير، ويفرز أجود الخشب ليأخذه للمدينة لاستعماله الخاص، وبعد ذلك يأتي نحونا فيقول:

ـ "خذوا بعض هذا الخشب الملقى هناك، يمكنكم أن تستعملوه فالليلة شديدة البرد، آه، ها أنتم ترون كيف يعتني الآغا بعماله! فأنتم تحصلون على هذا بغير مقابل، وعليكم إذاً أن تشتغلوا بعزيمة لسيدنا الرجل الطيب!"

ثم بعد ذلك نسمعه يضحك ساخراً، ووقفنا ننصت إليه، وكانت أمي تتنفس بصعوبة، وترتعش من البرد، وقبل زمن قليل، كانت مريضة بذات الجنب، وانتصب أبي، وقد لف ذراعيه حول صدره ينظر مباشرة إلى جمال.

وقلت لنفسي:

ـ "ليتني أستطيع أن أطبق يدي عليك في يوم من الأيام".

وطوال اليوم جمعنا الزيتون بغير أن يسمح لنا بأخذ حفنة منه لأنفسنا، وأحياناً كنا نجد بعض الزيتون يابساً، وكان المفروض ألا نضع هذا في الزكائب مع الزيتون الآخر، ولهذا كانت أمي تخبئ بعضه في جيبها، فنأكله في منزلنا وحتى هذا كان أمراً خطراً.. ففي ذات مرة وجد المدير بعض الزيتون اليابس في مخلاة أبي، فهدده بالطرد.

وعندما نبلغ بيتنا نحصي حبات الزيتون اليابس التي استطعنا إخفاءها في جيوبنا، أحياناً تبلغ العشرين بل الثلاثين ولا تزيد على هذا أبداً، فتُعد أمي بعضه لنا لنأكله.. وتحتفظ بالباقي.

وعندما ننام أو نحاول النوم في غرفتنا الباردة، يردد الظلام أصداء أجزاء من جمل نطقنا بها قبل نومنا، أو لعلنا كنا نتحدث في نومنا؟ "احترسوا...ها هو المدير..." "خمسة قناطير زيتون"... "عشرون زيتونة يابسة فقط"... "ألا نجد أكلة كاملة أبداً؟"... "الدنيا برد... الدنيا برد...".

استغرقنا في النوم إلى ساعة أو ساعتين بعد منتصف الليل ثم أزعج سباتنا صوت جمال الأجش: "قوموا... قوموا... راح الوقت، سيكون الآغا غاضباً..".

أمطرت في الخارج وفي داخل غرفتنا أيضاً، وفي منتصف الحجرة امتلأت صينية قديمة بالماء، ودخل الهواء الرطب غرفتنا من مئة شق، فالحيطان المصنوعة من الخشب والعيدان قد بدأت تتآكل،

وذلك الثقب الواسع في السقف قد فغر فاه كذئب يهدد بالافتراس، وتتنهد أمي قائلة: "ألا يقدر لنا أبداً أن نملك مكاناً لائقاً نعيش فيه لا يدخله الريح والمطر؟"

وعلى أي حال فإن الآغا لن يسمح لنا بالسفر قبل انتهاء العمل.

في ذلك المساء جاء الآغا إلى مكاننا وتشاجر مع أبي.

قال الآغا:

ـ "لا فائدة من الكلام، فإما أن تستمر في جمع زيتوني، وإلا فإنك لن تحصل على مليم".

فسأل أبي:

ـ "ولكن ماذا نأكل؟ لا بد من نقود قليلة لنشتري شوالاً من دقيق الذرة".

ـ "هل تملك أي شيء تعطيني إياه كرهن؟".

ـ "كلا... لا أملك شيئاً".

وقف الآغا عند الباب مرتدياً حلة جديدة، ويحمل سوط ركوب في يده.

ـ "حسناً.. إذا كنت لا تملك رهناً فلن تحصل على أي شيء".

ـ "لكنني لا أملك شيئاً".

ـ "لا يهمني إن كنت تملك أو لا تملك.. إن كل ما أريده هو عملك.. إنني أملك ألف شجرة زيتون ولا أعرف كم عاملاً أحتاج إليهم".

ومن وراء البحر كنت أرى جزيرة (ساساني)، وسطعت الشمس مشرقة، وذابت الأمواج المتلألئة في الأفق، ولكن هذا المشهد الجميل ما زال يعيد ذكريات أليمة، وفي تلك اللحظة لم أقدر على

الاستمتاع بالمنظر، ففي نفسي الطفلة.. كان يدور نزاع لم يترك مكاناً لشذى الأزهار وأمواج البحر الهادرة وغروب الشمس اللامع، لا مكان في فؤادي إلا للغضب والجوع والسم، صاح الآغا:

ـ لا شيء بغير رهن، أليس لديك أي شيء؟"

ـ "أي نوع من الأشياء؟"

ـ "سجادة مثلاً أو حصيرة؟"

ـ "لا ليس لدينا واحدة منها."

ـ "أي آنية طهي؟"

ـ "لا شيء غير جردل صغير يكاد يكون عديم الفائدة".

ـ "أي خاتم أو قرط ذهبي؟"

ـ "لا".

كنت ووالدي نقف أمام الآغا وهو يستجوبنا، وكان قلوبنا تقرع كالمطارق في صدورنا، ننظر إلى بعضنا بصمت، وعندما ذهب الآغا جعلت أمي تبكي، فقبلت جبينها دون أن أقول كلمة.. ثم رقدت؛ لأنام.

وكان اليوم التالي مثل غيره من الأيام، ولكننا قد استنفدنا آخر قطرة من قوتنا، ننظر إلى بعضنا بفتور كالمخدرين ـ أما الحكايات والنكات والأغاني والبهجة.. فكل هذا كان غريباً علينا، وتركزت عيوننا على خيال أكوام من الخبز، ولكن بدد هذا الحلم صوت اخترق الحائط المشقق:

"إذا كنت لا تملك رهناً فلن تحصل على ذرة."

كان ذلك يومنا الأخير قال الآغا:

ـ "عليكم أن تغادرونا بمجرد أن تنتهوا، إنني أحتاج للغرفة لإيواء الماشية."

كنا قد طالبنا بتسوية حساباتنا، فجاء الآغا إلى بابنا، وفي يده قلم رصاص:

ـ "قد أعددت حسابكم، إن كل ما أنت مدين به لي هو مكيال من الذرة، ويمكنك أن ترده عندما تعود في العام المقبل."

فصاح أبي:

ـ "ماذا؟"

وانتحبت أمي، وهي تضغط بيديها على جانبي وجهها:

ـ "آه."

وصحت أنا، وقد امتلأت عيوني دموعاً:

ـ "ماذا؟"

وكان الموت يقبض بأرواحنا: لقد اشتغلنا أربعة أشهر في سبيل كسرات قليلة، وفي نهاية المدة كنا مازلنا مدينين، عدنا إلى حجرتنا، وجلسنا هناك لحظة في صمت، وعند ذلك قال أبي:

ـ "مرة أخرى يحدث هذا: لقد عملنا بغير مقابل، ولم تبق حفنة دقيق نأخذها معنا".

وفكر أبي لحظة، ثم ثار به الغضب، فقال:

ـ "لا يوجد يوم يدوم للأبد، ولكل ليل نهاية".

قالت أمي:

ـ "لن نغادر هذا المكان، إلى أين نذهب؟"

ـ "هذا ما كنت أفكر فيه، لن نتحرك، وماذا في وسعهم أن يصنعوا بنا؟"

جاءنا مدير أعمال الآغا عشر مرات ليقول:

ـ "يجب أن تخرجوا فالماشية قادمة".

ـ "لن نذهب.. ولا نعرف أين نذهب؟"

ـ "اذهبوا حيثما تريدون، نحن فقط نحتاج إلى هذا المكان".

وجاء الآغا نفسه ليخرجنا، وكان صبرنا قد تجاوز نهايته، ولم نعد نقدر أن نمسك ألسنتنا.

ـ "حينما كان هناك عمل سمحت لنا بالبقاء هنا، أما الآن فأنت بغير حياء تطردنا، فأين نذهب؟"

ـ "إذا لم تسمعوا لصوت العقل، فإنني مضطر لاستخدام وسائل أخرى".

ـ "افعل ما بدا لك".

خرجت أمي من الباب، ووقفت في الفناء.

ـ "ألم يكفك أنك كدت تقتلنا بالعمل، فتريد الآن أن تقذف بنا إلى الشارع؟ ولكننا لن نذهب!"

كانت أمي تنظر نحو منزل الآغا عندما ظهرت زوجه في الشرفة، وصاحت بأمي:

ـ "أيتها الكلبة العجوز، اخرجي من هنا".

وثارت مناقشة صاخبة. ومن الشارع جاءت نساء عاملات، واشتركن في النقاش، وشقت زوج كريستو طريقها وسط الجمهرة وشعرها محلول، وأخذت تصيح بصوتها الغليظ الذي يشبه أصوات الرجال:

ـ "قد يكتب علينا الجوع، ولكن لكل شيء نهاية! فلا يخطئن أحد في هذا!"

ظل الآغا وجماعته في الشرفة وعند النوافذ، ولم يجرؤ على الخروج، وهتف بهم الجمع:

ـ "اخرجوا هنا، ودعونا ننظر إليكم!"

فزعقت زوجة الآغا:

ـ "لماذا نخرج؟ فالمكان هنا جميل ودافئ ولدينا كثير من الطعام".

وفي تلك اللحظة انهمر مطر غزير فجأة، وأخذ الناس يتفرقون.

أما نحن فقد عدنا إلى غرفتنا، وتجمعنا في زاوية منها لا يصل إليها المطر.

وفي تلك اللحظة اكتشفنا أن جمالاً قد تسلق السقف، وكان ينزع أجزاءه، ويلقيها إلى الأرض واحدة واحدة أولاً ثم أكثر من ذلك ــ كان يهدم السقف كله:

صاح أبي:

ـ "إنهم ينزعون السقف!"

والآن أخذ المطر يتدفق في حجرتنا الحقيرة وبسرعة جمعنا ثيابنا القليلة، واندفعنا إلى الخارج، وطبعاً كانت الدنيا تمطر أيضاً في الخارج.

صاح بنا جمال من فوق السقف:

ـ "إنها أوامر الآغا".

كانت الدنيا ظلاماً.. والطريق خالية من الناس.

غادرنا المكان، وقلوبنا تطفح حقداً، ولا أذكر أين ذهبنا في تلك الليلة؟

أذكر بعد ذلك بزمن أن أبي قص علينا:

ــ "بعد ذهابنا، أمر الآغا بإعادة السقف إلى مكانه، ثم جعل من المكان الذي كنا نعيش فيه خطيرة للماشية".

# خطاب
# إلى جندي أمريكي

هذا خطاب إلى النفر كينيث شادريك

العمر.. عشرون عاماً

من وست فيرجينيا

أول جندي أمريكي يسقط في الميدان الكوري

أرسله إلى هناك الرئيس ترومان

لقد قرأت عن موته أمس بصحيفة "فرى بريس بولتين" في نشرة إخبارية أذاعها مركز قيادة الجنرال ماك آرثر باليابان، ولهذا عزمت على الفور أن أكتب له خطاباً، لا لأن الميت يستطيع أن يقرأ خطابي، بل ربما يقرؤه غيره، وأرجوا أن يضعوا هذا في جيب شادريك الداخلي من الجانب الأيمن، في المكان الذي يضع فيه ساعته الذهبية.. وصورة حبيبته.. وآخر رسالة من أمه ــ وعندما تردّ أشياء الجندي الأخيرة إلى أحبابه بوسطة رجال الجنرال ماك آرثر، آمل أن يذهب هذا الخطاب معها ليقرأه أقارب المتوفى وأصدقاؤه، كما يقرؤه الألوف من سن كينيث شادريك من وست فيرجينيا الذي حكم عليهم المصير القاسي نفسه.

هذه رسالة مهمّة، إذ إنه رغم أن الموتى لن يعودوا، ولكن في المستطاع الإبقاء على الأحياء، إذا بذل الشعب الأمريكي مجهوداً كبيراً.

إن النشرة الإخبارية التي حملت التفاصيل المفزعة عن مقتل النفر شادريك، أنبأتني أيضاً أنه أثناء هذه المعركة الكورية، تقهقر الأمريكان على عجل، وخلفوا وراءهم كل قتلاهم وجرحاهم، ولهذا فإنك أيها النفر شادريك ما زلت ملقى فوق رابية عالية بكوريا، وقد فارقتك الحياة، وأستطيع أن أرى رصاصة في قلبك، وذلك العذاب المرتسم في عينيك، وما زال شعرك الأصفر يتموج تحت أشعة الشمس، فأسائل نفسي في أسى وغضب.. "من الذي أتى بك إلى هنا؟.. من الذي أمرك بمغادرة إخوتك وإخوانك وأمك وحبيبتك بوست فيرجينيا لتشترك في مغامر حمقاء في الخارج؟.. ومن الذي وضع البندقية في يد فتى في التاسعة عشرة، فتى كانت كل حياته ما زالت أمامه، وكان له كل الحق في أن يحياها؟.. فمن الذي طلب منه أن ينطلق لينفق عمره في قتال فوق سهول كوريا الغربية وتلالها؟"..

يجب أن نجد الجواب عن هذه الأسئلة، إذ إن سلام العالم يعتمد عليها.

إنك لا تعرفني يا شادريك، ولهذا يجب أن أقدم لك نفسي.. اسمي "كريشان تشاندر"، وحتى وقت قريب كنت أعيش في حارة صغيرة في مدينة لاهور بالبنجاب، وكان اسم حارتنا "تشوك ماتي"، ولكنني لا أعرف الآن ماذا أطلقوا عليها من أسماء؟ إذ إن الذين انتزعوا منك حياتك سلبوني أيضاً وطني ومدينتي وحارتنا الصغيرة، وقد يبدو هذا في نظرك أمراً عجيباً ـ وكما أنك لا تستطيع العودة إلى وطنك، فكذلك لا أستطيع أنا أن أعود إلى حارتنا العزيزة ـ فهل كان ما لحق بنا مجرد سوء طالع وقدر قاس، أم كان ذلك بفعل مؤامرة شائنة وحشية دبرها سياسيون تحجرت قلوبهم يسخرون من آلام الناس؟ ففقدت أنت حياتك وفقدت أنا موطني؟.. فأنت وأنا ـ الميت منا والحي ـ يجب أن نجد جواباً لهذا السؤال، والماضي والحاضر يجب أن يتعاونا لإنارة الطريق للمستقبل.

على الرغم من أنني لم أزر الولايات المتحدة، إلا أنني أعرفها جيداً، فأعرف وجهها المشرق الجميل، كما أعرف وجهها المتغضن القبيح ـ وأول مرة بدا لي فيها وجه أمريكا طالعته في حكاية قصيرة في كتاب المطالعة الإنجليزي.

وقد كانت الحكاية عن البطل الأمريكي جورج واشنطن الذي كان يحب دائماً أن يقول الحق، وقد تأثرت كثيراً بهذه القصة أيام طفولتي، واعتقدت أن أمريكا هي بلاد الرجال الصادقين الشرفاء الذين ينطقون دائماً بالصدق، وبعد أعوام، عندما كبرت، التحقت بكلية فورمان كريستيان بمدينة لاهور؛ لأحصل على المزيد من العلم، وهنا عرفت أمريكا معرفة دقيقة، فالشعب الأمريكي الذي تجلى لي محياه في حرب الاستقلال البطولية، وفي الحرب الأهلية على الرق في الجنوب، لا شك أنه جدير بالاحترام والإعجاب والحب من كل الناس العاديين الذين يسكنون أرضنا ـ وقد علمني أساتذتي الأمريكان أن أحب حرية القول وحرية الفكر، وأن تكون ثقتي بشعبي مكينة،

فحدثوني عن "أبراهام لنكولن" و"دستور الحرية" كما علمت عن المجهودات الجبارة التي قام بها المهاجرون الأوائل والرواد الذين أنشؤوا مدينة زاهرة في أرض بدائية بدوية ـ قرأت مارك توين ودريسر ووالت هويتمان الذي كانت يتحدث إليّ في أشعاره كما يحدثني جاري القريب.

وفي ذات يوم أعطاني أستاذ التاريخ جائزة هي أسطوانة لبول روبسون، وكانت أغنية تفيض بآلام البشرية وأفرحها، وحينما أصغيت للأغنية مأخوذاً بسحرها العميق، رأيت النرجس يفتح عيونه المضيئة على السهول الأمريكية الواسعة، ورأيت ملايين الأيدي النظيفة تعمل على نغمها القوى في الأراضي الأمريكية، وسمعت ضحك ألوف الأطفال في طريقهم إلى المدارس، كما أصغيت لخرير الأنهار في الغابات تنحدر من جبال روكي ـ وما أروع ما تحمله إليك أغنية من بول روبسن من جمال أمريكا الذي لا نهاية له ورقتها! ـ وأنا مدين له ولأصدقاء كثيرين من الأمريكان بما أظهروني عليه من صورة مشرقة للشعب

الأمريكي.. شعب بسيط مستقيم أمين تماماً كشعبنا هنا.

ولكن هناك أمريكا غير هذه.. أمريكا الحكام والقواد العسكريين ورجال المال.. وليست أمريكا الشعب.. أمريكا التي يمثلها فورد ودلاس وديبونت وروكفلر ومئات غيرهم لا أذكر أسماءهم ــ وعن أمريكا هذه أريد أن أكتب في خطابي لك، لأن هؤلاء هم الذين أرسلوك لحتفك في كوريا، وسيرسلونني أنا وما أملك إذا استطاعت أيديهم أن تمتد إلي ــ فهم كبار رجال الأعمال أصحاب الإمبراطوريات الاحتكارية الضخمة.. ملوك الذهب والفحم الحجري والحديد والقطن والخنازير والناس والبطاطس والعقاقير السامة والأسلحة وكل الأشياء الحية وغير الحية التي يمكنهم أن يبيعوها في سبيل الربح الشخصي.

وعندما أرسلوك إلى كوريا كانوا قد باعوك في سبيل الربح ـ ألم يقولوا لك يجب أن تحارب الشيوعيين في كوريا لأنهم يعرضون مصالح أمريكا القومية في

كوريا للخطر؟.. ولكن كان يجب أن تسألهم، وماذا تفعل المصالح الأمريكية القومية في كوريا؟.. ولماذا لم ترجعوا هذه المصالح إلى موطنها بوست فرجينيا حيث أستطيع أن أحميها بحماسة وطنية صحيح..

وأنت يا سيد كينيث شادريك لم تسأل حكامك هذا السؤال وكان ذلك خطأ فظيعاً، ولهذا أرى أنك قد دفعت عنه ثمناً غالياً ـ إنني لا أريد أن ألومك كثيراً على هذا، لأنني أعرف مبلغ خداع رجال الأعمال ومقدرتهم على إخفاء دوافعهم الحقيقية عن الشعب، ففي أثناء الحرب العظمى الأخيرة كانوا يبيعون الحديد الخردة لليابان حتى اليوم الذي ضرب فيه بيرل هار بور، وفي مقابل ربح اثنين سنتيم قد باعوا بلادهم وحتى أنت لا تساوي سنتيماً! وسيلقى بمئات الألوف من شباب أمريكا للتهلكة تحت ستار الحرب في سبيل الديمقراطية قبل أن يعرفوا أنهم لم يكونوا يحاربون من أجل الديمقراطية بل في مقابل حفنة من الفحم في كوريا أو قطرة من البترول في جهة ما من البلاد السعودية.

إنها لقصة عظيمة مفجعة بدأت منذ عهد بعيد في عام 1854م عندما ظهر الكومودور الأمريكي بيري وأسطوله في المياه اليابانية، وطلب أن يتاجر مع تلك البلاد تحت تهديد السلاح، وأذكر أنه أيضاً في عام 1954م كان الإنكليز يقرعون أبواب دلهي، كما كانت الأقطار الآسيوية من البوسفور إلى بانكوكي وما وراء ذلك قد سقطت تحت أقدام المستعمرين الفرنسيين والهولنديين والبرتغاليين والإنكليز، وكان أولئك الاستعماريون الغدّارون قد أتوا إلى قارة آسيا من أجل الربح الشخصي والاستغلال، ولكنهم أخفوا نياتهم الحقيقية، وأعلنوا للعالم أنهم جاؤوا لنشر رسالة المدينة.. المدينة المسيحية في مكان الوثنية المشرقية المتوحشة، واليوم تحت ضغط الحركات الوطنية المتصاعدة في آسيا، تخلوا عن هذه الدعوة، ولكن تجار الموت ما زالوا هم الأشرار القدماء أنفسهم ـ إنني أراهم بوضوح، وأتمنى أن يرى الملايين من أمثال النفر شادريك وجه أمريكا الحقيقي ونياتها الطيبة وإحسانها في آسيا، إن هذا سوف يقرب النهاية.

ولنعد إلى الوراء.. ففي عام 1700م حدثت ثورة البوكسر في الصين وكانت موجة على المستعمرين الأجانب، فقمعها المستعمرون بشكل وحشي وفتحت أبواب بلاد الصين العظيمة العريقة أمام المتدخلين ليستغلوا أو ينهبوا ويمرغوا في التراب كل مظاهر السيادة الوطنية فاحتلوا الموانئ والأنهار العظيمة وكل المنشآت المهمة في الاقتصاد الوطني، ثم أتت بعد ذلك الحرب العالمية الأولى، وبدأت أمريكا تقوى وتدعم مصالحها الاستعمارية في الشرق الأقصى، وفي نهاية الحرب العالمية الأخيرة تمت سيطرة أمريكا التامة على الشرق الأقصى، وكانت قد ابتلعت الصين كلها تقريباً، وكذلك كوريا جنوب خط العرض الثامن والثلاثين، وهكذا شطرت إلى قسمين بلاد عريقة عظيمة لها تاريخ مشترك ومدينة عمرها على الأقل أربعة آلاف سنة، وقد كان هذا إثماً في حق الإنسانية، إذ لا يمكن تفريق الأمة حسب خطوط الطول أو العرض، فلزمن بعيد ظلت كوريا عبارة عن وحدة وطنية لا تنفصل وسوف تعود وحدة سياسية واجتماعية بإرادة شعبها، وليس لأي دولة أجنبية أي حق في إنزال قواتها

في أي مكان بقارة آسيا للإبقاء على هذا الانفصال المصطنع، وإن أي دولة تفعل هذا فإنها دولة معتدية، وليست بديمقراطية.

إن الشعب الكوري هو الذي يقرر مصيره، ويختار نوع حكومته، وينتخب ممثليه، والشعب الكوري وحده هو الذي يحدد شكل اقتصاده القومي ونوعه، كما يختار بحريته اللون الخاص بعلمه، ورسم ذلك العلم، أو سياسته الخارجية، وليس من حق أي أجنبي أن يملي عليهم شيئاً في هذه الأمور، فإن لم يكن هناك بد من حرب أهلية.. ــ فلنتركهم يفعلون ذلك، فأنتم أيضاً كانت لكم حرب أهلية لتوحيد الولايات الشمالية مع الجنوبية، ولم يتدخل الكوريون المساكين في هذا. وانكلترا كانت بها حرب أهلية إلى درجة إعدام ملكهم، ولكن ملك كوريا المسكين لم يرسل قواته لمساعدة الملكية في إنكلترا. فلم يبحث الإنكليز بأسطولهم إلى المياه الكورية اليوم؟.. يقولون إنهم يدافعون عن خط العرض 38.. نعم. من يدري ففي غد قد يرسلون جنودهم لحماية مدار السرطان! فما أغرب هؤلاء المستعمرين الإنكليز!

ورغم هذا فإن الآسيويين اليوم لم يخدعوا بخرافة الخط الثامن والثلاثين هذه، فهم يعملون أن الغرض هو حماية خط العرض الآخر.. خط العرض الاستعماري الضخم، ومن أجل هذا تحارب القوات الأنكلو أمريكية في كوريا، فهذا الخط القاسي يخترق قلب آسيا، ويقسم كل شيء يلمسه إلى قسمين فهو يمر بفلسطين فيقسمها إلى إسرائيل والأردن، ويمر بالهند فيقسمها إلى هندستان وباكستان، وفي بورما فيجعلها بورما وولاية كارين، وأندونيسيا فيجعل منها بورنيو الشرقية وأندونيسيا وغويانا الجديدة، وهو إذ يمر بالهند الصينية يقسمها إلى حكومة باوداي الصورية وإلى الفتينام ــ فهو خط عام للتقسيم والتفرقة وليس للتوحيد، والمستعمرون الآن كما كانوا قديماً يبحثون عن صنائعهم وعن المتعاونين والعناصر التابعة من بين شعوب آسيا، ثم يسمون هؤلاء: "العناصر الوطنية الحقيقية"، وما عداهم فشيوعيون، وبعد ذلك يستمرون في استغلالهم للبلاد تحت ستار حكومات صنائعهم وأذنابهم.

قد أخذ هذا يحدث في كل البلاد الآسيوية المستعمرة تقريباً بعد الحرب الأخيرة عندما أجبرت الحركات الشعبية في آسيا المستعمرين على الاختفاء، والعمل من وراء الزعماء المزيفين الذين لم يكونوا أكثر من وسطاء وسماسرة للاستعمار ــ ولكن انتفاضة الحركات الوطنية التحريرية في آسيا تدأب بثبات على تحطيم أمثال هذه الحكومات التابعة وبذلك يضطر الاستعمار أن يسفر مرة أخرى، وهذا هو السبب في أنه قد جاء إلى كوريا وبيده السلاح، ومن أجل هذا تموت اليوم أيها النفر شادريك.

أريد أن تفهم جيداً؛ لأن سلام العالم يعتمد على فهمك التام للمسائل المتنازع عليها ـ إن مسؤولية عظيمة تقع على الشعب الأمريكي الذي يمثل في مجموعة ملايين كثيرة من نوع النفر شادريك، فيجب أن تقولوا لمستعمركم وأصحاب الاحتكارات وأصحاب البنوك في وول ستريت، إن الشعب الأمريكي ليست له أي رغبة في فرض أسلوب حياته على شعوب آسيا، (وحتى هذه اللحظة فإن ما قدمه المستعمرون الأمريكان لنا ليس هو الطريقة الأمريكية في الحياة، بل الطريقة

الأميركية للموت في ناكازاكي وهيروشيما)، يجب أن تقولوا لحكامكم وقادتكم الحربين الذين يندفعون لحرب مع الشيوعيين إنكم لن تحاربوا أي مبدأ في آسيا سواء كان البوذية أم الشيوعية، وإذا أرادوا أن يحتفظوا به فيكونوا هم وحدهم الحكم والفيصل ولا شأن لكم بهذا، وكل الأنفار مثل شادريك يجب عليهم بجهودهم الموحدة أن يوضحوا لتجار الحرب أنهم لن يحاربوا في سبيل سيطرتهم في الشرق أو الغرب في أوروبا أو إفريقيا أو آسيا، وأنهم سيتركون الشعوب تقرر مصيرها وحدها.

لعل أسلوب كتابتي يجعلك تظن أنني غير آسف لموتك يا نفر شادريك، ولكن الأمر ليس كذلك فإنني حقيقةً جدُّ حزينْ من أجلك، ولكني الآن لا أملك دموعاً من أجلك، فقد أرقت مدامعي منذ أمد بعيد، لأنني رأيت كثيراً من الشقاء والظلم الاجتماعي في بلادي، ودعني أؤكد لك أنني لا أملك سوى غضب ملتهب وحقد عميق على أولئك الذين أرسلوك لحتفك في كوريا، ولكن هذه المسألة قد بدأت منذ زمن بعيد، ولهذا قصة..

في الحرب الروسية ــ اليابانية سنة 1905م عندما شق اليابانيون طريقهم إلى الصين، سافر مع القوات اليابانية ضابط أمريكي شاب من وست بوينت بأمريكا على أنّه مراقب حربي محايد، والغريب أن اسمه كان ماك آرثر.

والآن عندما أفكر في هذا أشعر بأنه لم يكن مراقباً محايداً قطُّ، فقد كان المستعمرون الأمريكان قد جعلوا يلقون نظرات الجشع على ثروات الشرق الأقصى، ويخالجني شعور بأن الضابط ماك آرثر عندما أتى إلى الصين عام 1905م كان بالفعل يحمل في جيبه أمراً بموتك، فقد حكم عليك بالإعدام قبل أن تولد بزمن طويل، وإن قتلاً دون رحمة كهذا لا يثير الدموع بل يثير حقداً شديداً وغضباً وثورة لتحطيم تجار الحرب الذين يرسلون فتيان المدارس إلى ميادين الحروب، في الوقت الذي كان يجب أن يذهبوا فيه إلى ميادين الرياضة، وهذا هو السبب في أنني لا أملك لك دمعاً.

أيها النفر كينيث شادريك.. إنني أشعر بعميق الأسى من أجلك، ولعل جنرالك ماك آرثر لا يعرف ماذا يعني موت جندي في معركة، فأنت عنده عبارة عن دبوس في خريطة، ولكنني أعرف ماذا يحدث عندما يموت في الحرب شاب في العشرين عمره.

فعندما مات النفر شادريك من وست فرجينيا في سن العشرين ماتت معه أشياء عظيمة كثيرة، فقد مات كتاب.. وماتت معه أغنية.. وربما اختراع جديد في العلوم، وبهذا ترك العالم بعده أكثر شقاء وفقراً لفقده، وربما كان فقده لدى الجنرال ماك آرثر أقل من قيمة دبوس، أما عند الناس ذوي القلوب الطيبة فقد كان المصاب كبيراً، واليوم في كل مكان به قلب رقيق فإن ذلك القلب يخفق ألماً لموت شادريك الفاجع، لإيمانه المسكين بأنه ما كان يجب أبداً أن يموت، لأن دنيانا هذه على الرغم من أن السلم فوقها ما زال مزعزعاً يحدق به الخطر، فإنها مكان كبير وجميل جداً، ويمكننا جميعاً أن نعيش في سعادة هنا، ففي دنيانا سهول خصيبة واسعة غنية بالقمح والشوفان والذرة والقطن، وفيها تلال كبيرة متماوجة ومناطق

جبلية تضج فيها الحياة الطبيعية والمعان الخام والأخشاب وأنهار عظيمة وبحيرات تكمن في قوى كهربائية ـ يمكننا جميعاً أن نعيش هنا في سعادة وفي نعيم متزايد، ولكن ماذا نرى إذا ما تطلعنا إلى ما وراء دنيانا الصغيرة هذه؟.. إننا نرى ملايين العوالم تسبح في الفضاء، وهي كثيرة جداً حتى أن كل رجل منا لو وجد شجاعة يستطيع أن يملك نجمة لنفسه، فهنا مظهر طبيعي في اتساعه الهائل وإمكانيته العظيمة يستثير كل قوى الإنسان وشجاعته وإقدامه، فإذا استطاع بعض الناس فقط أن يتخلصوا من جهلهم العميق وينفضوه عنهم وينظروا حولهم نحو الفضاء بدلاً من أن يقاتلوا في سبيل هضبة حقيرة في كوريا، وإذا أمكن للذين ينفقون ملايين الدولارات الآن في تحضير القنابل الهيدروجينية أن يحولوا هذه المقادير الهائلة لمشروع علمي مفيد.. فإن هذا العالم سوف يصبح حينئذ بالتأكيد مكاناً أصلح كثيراً وأصح كي يعاش فيه.

وحينما أكتب لك هذه السطور، فإنني أنظر برهة حولي، فمن وراء النافذة التي أجلس عندها يتجلى أمامي منظر جميل، فأوراق أشجار النخيل التي تشبه

المراوح بحفيفها اللطيف فوق أعمدة التلغراف الهيفاء تنتشر فوق السهول التي يغطيها نبات السرخس، ومن وراء السهول تلال آند هيري المستديرة وتلال فيهار الصغيرة الجميلة وكلها تغيب وتتلاشى في ضباب جو الصيف الموسمي، وفي مكان ما على تلك الرُّبا ترقد أنت ميتاً قد بردت أطرافك وغمرك السكون في وحدة موحشة، إنني أفكر وفي مئات غيرك في سن العشرين من وست فيرجينيا وكانسس وأوهيو وتكساس وسنسيناتي، وأفكر في أنفار مثل شادريك لم يبلغوا العشرين.. أولئك الذين في التاسعة عشرة والثامنة عشرة والسابعة عشرة والسادسة عشرة، وأفكر في نفر في الثالثة.. هو ابني، فهل يرسلونه أيضاً ليحارب لهم عندما يكبر ويصبح في سنك؟.. كلا.. كلا.. يجب ألاّ يحدث هذا ثانيةً.. ولهذا السبب عندما أنظر من النافذة، وأرى جثتك ملقاة وحيدة على تلك الهضبة العالية، فإنني أحلف قسماً مقدساً:

"السلام يجب أن يتحقق هنا والآن"

"السلام في عصرنا"

"والسلام في كل العصور".

# ليلة البدر

الكاتب الهندي "كريشان تشاندر"

إنه إبريل...

وكانت الأشجار مثقلة بنوار اللوز والهواء البارد يبوح بشذى الربيع، وتحت أشجار الحور الباسقة، كانت لا تزال ترى قطع صغيرة من صقيع الشتاء الماضي، ومن بعد تبدو كأزهار بيضاء ـ وإذا أتى شهر مايو، تذوب وتتبخر، وتغطي الأرض العارية الشديدة الاسمرار براعم خضراء من نبت كالمخمل، وتثقل الأغصان بفاكهة اللوز، وهي مازالت خضراء، وينقشع الضباب من فوق التلال الزرقاء البعيدة، ومن وراء البحيرة يتعالى ثغاء الأغنام، وهي سائرة على الطريق المترب، وسيأتي الرعاة بأصواتهم الخشنة فيجلسون تحت الأشجار العالية، ويجزون أصواف الغنم، ويبدأ أحدهم في الغناء..

ومن لا يغني في الربيع؟

ولكن مايو لم يحل..

وما زلنا في إبريل، ولم تورق بعد الأغصان الغليظة في الأشجار ذات اللون الذهبي المائل للسمرة، ولم ينقشع الضباب عن التلال الزرقاء البعيدة، وما زال الطريق المغبر يجلله الصمت، والبرد منتشر فوق البحيرة، والبحيرة نفسها لم تتفتح بعد على سطحها أزهار البشنين الصغيرة كمصابيح أوقدتها احتفاء بمقدم الربيع، ولعل تلك الأزهار المضيئة الصغيرة ما زالت مختبئة في مكان ما بأعماق البحيرة الشديدة الاخضرار.

وعندما يأتي الربيع..

سوف تطلع أزهار البشنين على السطح واحدة بعد الأخرى، تقهقه كأطفال عفاريت يلعبون الاستغماية، أما الآن فلا أزهار فوق سطح البحيرة؛ لأن إبريل هو آخر ليالي الشتاء، وعند ذلك يتساقط نوار اللوز في بياضه المشرق على سطح البحيرة المخضرة.. يتساقط بلطف، ويهتز على سطحها، فكأنه زوارق بيضاء في انتظار الربيع.

وانحنيت على الجسر الخشبي أنتظرها ولكنها لم تأت.

وتحول غبش الماء إلى غروب ذهبي وعبرت السفن التي يتخذها الناس مساكن في طريقها إلى بحيرة "والار"، لبرهة طويلة ظللت أرقب ألوان الغروب يختلف فوقها اللون الذهبي والأحمر الشاحب والقرمزي والرمادي والأدكن، ثم هبطت الظلمة حولي، ولم أعد أراها بعد ذلك، وفجأة ارتجفت من البرد، فرفعت ياقة قميصي ونظرت حولي، كان الليل قد هبط على البحيرة وعلى الجسر، وفوق أشجار اللوز، فأخفى الطريق الموحش فصار أسود كالحبر، وبعد ذلك تلألأت أول نجمة في ظلام الليل الهادئ، فكأنها أغنية المسافر في طريقه إلى مقره، وأمسى الهواء أكثر برداً، فارتعش أنفي من لفحه.

وأخيراً أسفر البدر.

وفجأة رأيتها تعدو هابطة في الطريق كجنينة تحت أشجار اللوز، فرأتني، وقفت ثم أسرعت خطواتها، جرت نحوي، وعندما لمست كفي بإصبعها

الدقيق كانت ما زالت أنفاسها تتلاحق، وفي تنهد عميق ألقت برأسها على كتفي، فأحسست بغدائرها الطويلة السوداء تنتشر فوقي، وتغطى أرضي السمراء بمسها المخملي العذب فقلت لها:

ـ "لقد انتظرتك كثيراً".

فقالت: "إني أعرف ذلك"، وضحكت، ووضعت يدها الصغيرة في يدي، وباليد الأخرى لمست كتفي ثانياً، ثم تركتها تستقر هناك، فأحسست كأنّ غصناً رطيباً مفضفضاً بالنوّار قد انفصل من شجرة اللوز، واستلقى على كتفي.

لبثنا صامتين طويلاً في أحضان رفيقة، فنسينا العالم، وغاب كل منا في رفيقه ـ ثم انفلتت مني، وقالت:

ـ "لقد صحبني أبي حتى استدارة الطريقة ليحرسني، وإذا كان قد بلغ هذا المكان فماذا كنت صانعة؟.. كنت أمرّ بك وكأني لا أعرفك، ولكنه لحسن الحظ قد عاد".

ـ "وماذا قلت له؟"

ـ "أخبرته أننا سنقضي كل ليلنا غناء بمحلّة "راجي"، لأن هذه ليلة أزهار إبريل، وكل فتيات قرتينا وما وراءها من القرى يغنين ويرقصن ويمرحن طول الليل ـ لقد أردت أن أبكر في الحضور، ولكن كانت هناك أشياء كثيرة لا بدّ من عملها، فالأرز يجب أن يقشر.. وملابسي التي غسلتها بالأمس كانت لم تجفّ.. وذهبت أمي إلى الغابة لتجمع حطباً، وكان لا بد من انتظارها.. وإذا لم أنتظرها كيف كنت أستطيع أن أحضر لك الخوخ المجفف والمشمش؟.. انظر ماذا أحضرت لك.. لا تغضب مني، ولا تحول بصرك بعيداً هكذا.. إنني قد أتيت وقد طلع البدر أيضاً.. لنستقل هذا الزورق على الشاطئ ونجدف عبر البحيرة.. تعال".

ونظرت في عيني ونظرت في عينيها، فأضاءت عيناها بنور الحب والدهشة من مجرد الوجود، وكان بدر الدجى المكتمل يرنو إلي من خلال الشجر فقال لي البدر:

ـ "إنها على حق، خذ حبيبتك في الزورق، وجدف حتى منتصف البحيرة فإنها ليلة أزهار إبريل، وهو عيد

الأغاني المرحة، عندما تتناثر أزهار اللوز في كل مكان كرقائق من الثلج فوق وادي كشمير ــ وهي اليوم قد تركت والديها وصويحباتها وأخواتها وأتت إليك في هذه الليلة التي اكتمل فيها البدر، عندما فاضت أغاني كشمير في صدرها كلبن الربيع، أترى ذلك العقد الأحمر في نحرها؟.. لقد أعطته لها أمّها في هذه المناسبة، وقالت لها: اذهبي يا ابنتي وغني طرباً هذه الليلة لأنها أول ليالي الربيع بأرضنا الحبيبة ولتصدح شفتاك بأغان كأزهار الزعفران المتفتحة في ليلة تمام البدر".

قال لي البدر كل هذا من خلال نظراتها الرائعة فحولت عيني عنها.

وهناك بعيداً فوق مياه نهر جهلوم.. أشعل النوتية مصابيحهم، وأخذ عندليب يغني، ومن وراء قرى الوادي الصغيرة نقل إلينا الهواء الرقيق المار فوق أشجار الحور الشامخة أصداء أغنيات "باهاري" وضحكاً خافتاً لعذارى عيونهن كالغزلان، كما حمل إلينا أصوات الرجال العميقة المعجلة قد أضناها نصب النهار،

وأصوات الأطفال الحادة يلحون في طلب الطعام، ومن بعيد جاء الهواء بأغان ودخان المواقد. وضحك النساء كما عبق برائحة الطعام، رائحة المسك والأرز وبخار حساء أوراق (الكارام) ــ وفجأة هدأت نفسي تماماً وغمرني ضياء احتواها وشمل الدنيا من حولي فأخذت يدها في يدي وقلت:

ـ "هيا لنأخذ الزورق".

فاتجهنا نحو البحيرة، وعبرنا الجسر والصف الطويل من أشجار اللوز، ومررنا ببقعة عذراء من العشب الأخضر، ثم مشينا على مهل على شاطئ البحيرة يداً بيد: نقت الضفادع في الشجيرات، وكانت الحشرات الفوسفورية تتطاير من مكان لآخر، وانطلقت الدواب الصغيرة الأخرى في لحن ناعم عذب كالأحلام، وتوسط البدر البحيرة كزورق أبيض قد لبث ألف عام يترقب ليلة الحب هذه ينتظرني أنا وغرامي.. يترقب ملايين الرجال والنساء يخلقون في هذه الليلة المقدسة كارتقاب الجسد البتول أولى قبلات الحب.

وكـان الـزورق الخشـبي الصـغير مربوطـاً علـى الشاطئ إلى شـجرة خوخ، وفي هـذه البقعـة كـان الثرى ناعماً، ومياه البحيرة تضرب الشاطئ في رفق كأن الماء يقبـل الأرض ــ فحللـت الـزورق ثـم وقفـت تحـت ظـلال الخوخـة الـتي يـومض فيهـا النـور، وأخـذتها في أحضـان وقبلتها، وقبل الماء الأرض مراراً وفعلت مثله.

وعندما قبلت عينيها، أفاقت وتفتحت فوق البحيرة ملايين من عيون زهـر البشـنين.. ولما قبلت خدها تعالت الأنسام الرقيقة في كل مكان، واجتمعت في سمفونية عظيمة مؤلفة من مئات الأناشيد.. وحينما قبلت شفتيها بـدأت ملايـين الأجـراس تقـرع في الكنـائس وتـزحم الفضاء في صلاة إنسانية وابتهال، كما أخذت أزهار أرضـنا ونجـوم سمواتنـا وغيـوم تلالنـا تـرقص في إيقـاع طـروب، وتنفسـت عـن عطـر رفيـق غمـر وجـودي بشـذاه العـذب.. ثـم قبلتهـا في ذقنهـا وفي جيـدها الـذي اتكـأ كغصن طري، وثارت دمائي.

كـذلك تـوارت أزهـار البشـنين، وسـكتت الأغنيات، وارتد الرقص إلى صمت عميق، لم يبق إلا

نقيق الضفادع، والماء يضرب الشاطئ في همس رقيق، وفوق كتفي كانت هي تنتحب همساً، فحملتها إلى الزورق، وأخذت أجدف في هون، فابتسمت، وأخذت المجداف الآخر، فوصلنا سريعاً إلى منتصف البحيرة، وهنا كان الموج نائماً، وتوقف زورقنا فوضعنا المجدافين في الزورق وجعلنا نحدق في القمر ـ فابتسمت في حكمة وتحولت عن البدر، وحلت ربطة كانت قد أحضرت فيها لنا فاكهة مجففة، وأعطتني برقوقاً بعد أن وضعت واحدة في فمها، وقالت:

ـ "إن لها طعماً مختلطاً فهي حلوة ومرة في الوقت نفسه أليس كذلك؟"

فقلت: "نعم إنها كذلك".

ـ لقد جمع هذا البرقوق في الربيع الماضي.

وألقيت بذور البرقوق في البحيرة فقالت براءة:

ـ "إنك لم تكن هنا في الربيع الأخير".

لم أكن هنا، ولكن أشجار البرقوق كانت هنا.. لم أكن هنا، ولكن رغم هذا فقد أزهر البرقوق، وضحكت في جذل الأزهار البيضاء الصغيرة من قلبها

الأحمر فوق الغصون أيام الربيع الأخير، ولم أكن هنا.. وحينذاك ظهر برقوق صغير أخضر في مكان الزهور البيضاء، كان البرقوق صغيراً وطعمه حامضاً، ولكنه لذيذ الطعم إذا أكل بقليل من الملح وكثير من الفلفل الأحمر، فهو يستدّر ماء الفم، ويسيل له الأنف، ولكننا نأكله في لذة كبيرة.. ما كنت هنا حينما أكلته في الربيع الأخير عندما استحال البرقوق الأخضر إلى أصفر وإلى لون ذهبي فقرت به عيون الفلاحين، فأحبوا لونه وعصيره ومذاقه، وامتدت الأيدي النحيلة تجمعه على عجل، وتضعها فوق رؤوس المنازل في الشمس، حتى إذا ولى الربيع الأول ثم أتى الربيع المقبل بكل بهائه وجلاله يستطيع الإنسان أن يأكل ذلك البرقوق المجفف بطعمه الذي تختلف عليه الحلاوة والمرارة.

"وبعد أن فرغ البرقوق أكلنا من المشمش الجاف، وفي أول الأمر لا يكون مذاقه حلواً، ولكن إذا ترك في الفم مدة طويلة ومضغ على مهل يصبح طعمه كالعسل، فقلت:

ـ "أوه إنه حلو جداً."

فكسرت مشمشة بأسنانها الصغيرة البيضاء، وأعطتني النواة قائلة:

ـ "كيف تجد هذه"

ـ "أوه.. إن طعمها كاللوز.. جميل.. لم يكن هناك مشمش بهذه الحلاوة من قبل."

فقالت: "هذه ثمار برقوقتي التي زرعتها في قطعة الأرض التي أعطاها لي أبي عندما كنت طفلة، إن فاكهتها أحلى من كل فاكهة غيرها، وعندما ينضج برقوقي، ويصبح لونه كالذهب الأحمر يجتمع تحتها كل أصحابي في القرية يريدون أن أعزمهم على برقوقي، وفي الربيع الماضي..

تذكرت الربيع السابق عندما لم أكن هنا ــ وكانت شجرة البرقوق واقفة هنا فوق رقعتها من الأرض وكانت مثقلة بالأوراق الصغيرة الخضراء وعناقيد البرقوق الصغيرة الخضراء التي كانت أولاً بغير نوى وحامضة جداً وللبرقوق الأخضر نوى لين وهو بدوره مع الزمن يتحول فيصبح صلباً، ولا يزال البرقوق حامضاً، ولكن البذر في داخل النوى يكون ناعماً

حلواً جميل المذاق، فما أبدع الخليقة! ــ ثم يصبح البرقوق الأخضر شاحباً كأول الفجر وحلواً حلاوة هذه الصبية من كشمير ـ ولما تلألأت العناقيد الذهبية فوق العريش الأخضر طلبت من أخيها أن يتسلق شجرتها، ويلقي بالبرقوق الحلو لأصحابها الجالسين تحت الشجرة... آه ما كان أحلى برقوق الربيع الماضي عندما لم أكن هناك!

وبعد ذلك أكلنا كيزان الذرة المشوي، وكانت لها نكهة حلوة دافئة كالأرض التي حرثت حديثاً، وبرغم أن الحياة كان قد لحقها بعض الإحراق إلا أنها لم تفقد بريقها الذهبي، فقلت:

ـ "آه إنها حسنة."

ـ "نعم إنه ذرة مصري من الموسم الماضي خبأته في جرة من الطين".

أكلت الصف الأول من الحبات، وأكلت في الصف الثاني، وناولتني الكوز، فأكلت صفين وأرجعته لها، وهكذا حتى أتينا عليه.. نعم ما أطيب هذا الكوز من الموسم الماضي حينما لم أكن هنا!

ولكنك يا حبيبتي حقاً كنت هنا وأبوك في العام المنصرم، قد حرث أرضه، وبذر الحب، وأتى السحاب بالماء فاهتزت الأرض وربت ورفعت أعلام الخليقة الخضراء نحو السماء.. وأنت يا حبيبتي قد عملت كثيراً في هذه الحقول بجانب أبيك وأمك وإخوتك وإخوانك حتى قويت أعلام الذرة الخضراء وتصلب عودها كحد الموس وفوق عيونها حملت الأوراق كيزاناً خضراء مثلما تحمل الأم الطفل، وامتلأ الحقل بأمهات صغيرات يحملن أكثر من طفل في أذرعهن الخضراء ــ وفي أول الأمر كان الذرة في الكيزان أبيض رقيق البشرة، وإذا غرزت فيه دبوساً فاض منه لبن أبيض ــ وهذا اللبن الأبيض قد خلق من التربة السمراء عندما كنت بعيداً من هنا.

وبعد زمن يتصلب العصير الأبيض ويصبح نواة، وتخشوشن البشرة الرقيقة أيضاً، ويتغير لونها، وتصفر خصل الكوز الخضراء الناعمة، وبعد ذلك تصير سمراء ثم سوداء، ولكنني كنت حينذاك بعيداً.. ولكن لم تنتظري، فحصدت الذرة، وجمعت في بيادر

طويلة بجانب الحقول، ثم هدمت البيادر، ومشيت فوقها الثيران؛ لتفصل الذرة عن الكيزان، وغنيت مع بنات الفلاحين في الوادي، وفي خفة خبأت بعض الكيزان في جرة من الطين، ولكنني لم أكن وقتها هنا.. فهنا الأرض والحياة والحب والخليقة وبريق أعواد قصب السكر العسجدي.. ولكنني لم أكن هنا.

فنظرت إليها في سعادة وقلت لها:

ـ "الليلة قد اكتمل البدر وكل شيء غيره قد اكتمل وبلغ تمامه، وحتى الأمس لم يكن هكذا، ولكن اليوم قد اكتمل كل شيء كالقمر.. أليس كذلك؟"

فقضمت نصف الصف الأخير من حبات الكوز، ثم وضعته على شفتي فذقت رضاب شفتيها ما زال دافئاً فوقه، فقلت لها:

ـ "سأقبلك".

ـ "لا إن الزورق صغير، وسينقلب، ويغرقنا."

فسألتها:

ـ "وماذا نصنع إذاً؟"

ـ "دعنا نغرق."

* * *

لقد بلغت الآن السبعين، ولكنني لم أنس تلك الليلة المقمرة، وما يزال يخيل لي أن ما حدث كان بالأمس القريب، ولعلي لم أحب بمثل هذه القوة منذ ذلك التاريخ، ولعلها هي لم تحب أحداً بعد ذلك ـ إنه سحر الحب العجيب الذي كان قد سحر نفوسنا في تلك الليلة التي تم فيها البدر حتى أنها فرت معي ولم تعد إلى والديها، وفي الأيام الخمسة أو الستة الأولى تجولنا هنا وهناك في الوادي ننام تحت شجر الجوز، ونستمع لموسيقا الجداول الرقراقة مختلطة بنشوة غرامنا ـ فاشتريت بيتاً صغيراً على شاطئ البحيرة، وعشنا في سعادة مدة شهر، وفي ذات يوم قلت لها:

ـ "سوف أذهب إلى قرية (سريناقار) لأقابل بستانياً، وستكون لنا حديقة جميلة حول منزلنا."

فطرب للفكرة وسافرت إلى سريناقار ووعدتها العودة بعد أيام ثلاثة وفي اليوم الموعود رجعت ورأيت أن

أفاجئها فتسللت إلى المنزل خلسة وهناك رأيتها في المطبخ تتحدث في سرور إلى فتى.. فأسرعت بالاختباء وراء الباب، كانا يأكلان معاً من صحن واحد، وأحياناً كان الشاب يضع لقمة في فمها، وأحياناً هي ذلك وأثناء هذا تضحك في حبور، لحسن الحظ كنت قد رأيتهما، ولكنهما لم يرياني، ولهذا تسللت مبتعداً.. لعله حبيبها في الربيع الماضي، ولعله حبيب من ربيع أسبق عندما لم أكن هنا، ولعله سيعود في المستقبل لأكثر من ربيع كهذا عندما يصبح الهلال بدراً، وسينطلق الحب في نزقه الفاجر... حسناً فها قد حل خريف حياتي بعد الربيع فلأذهب إذاً، فتركت المنزل بغير أن ألقاهما، ولم أعد.

وهأنا أعود إلى هذا الوادي مرة أخرى بعد خمسة وأربعين عاماً، وقد جاء أبنائي معي.. وقد توفيت زوجي، ولكن أبنائي وزوجاتهم وأطفالهم كانوا معي ــ لقد جئنا من سريناقار البعيدة لنزور هذه البحيرة، وهذا شهر إبريل، والوقت مساء وأنا أقف على الجسر أرسل بصري إلى ما وراء أشجار اللوز التي تهز براعمها

البيضاء مرحبة بنا، ومن منعطف الطريق المقفر جاءت فتاة تجري وبيدها ربطة، وعندما تجاوزتني خفق فؤادي لحظة وبقوة ومن وراء عدد من أشجار التونج كانت امرأة تنادي زوجها للعشاء، وفي مكان ما ينفتح باب ثم يقفل ويصرخ طفل ثم يهدأ.. وفجأة يحل السكون، ويلف كل شيء حولنا، ومن بيوت الفلاحين يرتفع الدخان كصلاة رقيقة، وعلى حين فجأة تضرب الطيور المعششة فوق أشجار التونج بأجنحتها فتحدث ضوضاء عالية، ومرة واحدة تقر، وتهدأ ثانياً، ويتعرج النهر بطيئاً، ويشعل نوتي مصباحاً في زورقه ثم يغني بصوت خافت عميق.

عبرت الجسر متمهلاً، ثم نظرت خلفي، وتبعني أبنائي وزوجاتهم وأطفالهم وهم مستغرقون في أحاديثهم اللطيفة، وبعد الجسر ينتهي صف أشجار اللوز إلى بقعة مخضرّة.. وهناك البحيرة وشجرة الخوخ والزورق الخشبي الصغير مربوط إليها ـ المنظر نفسه كما كان قبل خمسة وأربعين عاماً ـ وهناك البيت.. بيتي في الربيع الأول، والبدر المكتمل، ومن ذلك المنزل ينبعث ضوء وضحك أطفال، ويغني إنسان بصوت عميق ثم تصيح

امـرأة عجـوز: "كفـى صـياحاً"، فيسـود الهـدوء مـرة أخرى، ويمكن أن أدخل.. ولا بأس في ذلك فرغم كل شيء، فإنه بيتي الذي اشتريته، وحسب قوانين التملك الشخصي فإنه ما زال ملكي، فلأدخل لكي أعرف على الأقل من يقيم هنا، وأي بأس في هذا؟.. وهكذا دخلت.

في داخل الردهة الأخرى يلعب عدد من الأطفال لعبة الاستغماية، وامرأة شابة تحمل صحناً ساخناً من الأرزّ لزوجها، ولما وقعت عينها علي وقفت والصحن في يدها، والأطفال أيضاً قد دهشوا لرؤية رجل غريب تماماً في دارهم، ووقفت امرأة عجوز بجانب سارية خشبية، وسألت في صوت أجشّ:

ـ "ومن أنت؟ ولماذا دخلت؟"

فقلت: "إن هذا منزلي".

فأجابت العجوز ساخرة: "نعم.. إنه بيت أبيك".

فقلت لها برقة: "إنه ليس بيت أبي بل بيتي أنا، قد اشتريته قبل خمسة وأربعين عاماً وقد دخلت لأراه لأنني.. لأنني..."

ثم سكت وعدت إلى نفسي فقلت:

ـ "أرجو المعذرة، لقد أردت فقط أن أدخل لألقي نظرة، وما أتيت لأطرد أحداً".

فوقفت المرأة مشدوهة ذاهلة، وقد أمسكت بالعمود الخشبي وتصلبت عليه، حتى لمعت مفاصلها المعروقة في ضوء القمر، وندت منها زفرة حارة، وبعد برهة قالت في تأثر مكبوت:

ـ "نعم إنه أنت.. أنت..."

ووقفت بجانب العمود الخشبي صامتة مطرقة الرأس، ولبرهة طويلة تطلعت إليها صامتاً، وأخيراً رفعت رأسها في بطء، وابتسمت وقالت لي:

ـ "تعال لترى أهلي، هذا أكبر أبنائي، وهذه أصغر منه.. إنها زوج أكبر أبنائي، والطفل الصغير أول أحفادي.. صه.. لا توقظه فهذا زوجي إنه مريض، دعه ينام".

ثم التفتت نحوي وقالت:

ـ "مرحباً بك أيها الغريب."

فنظرت إليها، وامتدت نظرتي وراءها نحو حائط من الطين تدلى منه إكليل من الذرة المشوي، فأدارت رأسها وتابعت نظراتي.. فابتسمت ثانياً قال:

ـ لم تعد لي أسنان"، فقلت لها:

ـ "وأنا أيضاً لم يبق لي منها إلا القليل الآن، ولا أستطيع أكلها".

تبعني أبنائي إلى داخل الدار، وسرعان ما تعارفوا وأخذوا يتحدثون بشوق، وخرجنا في سكون، وسرنا إلى شاطئ البحيرة، وقالت:

ـ "لقد انتظرتك ستة أعوام.. فلماذا لم تعد في اليوم الموعود؟"

ـ "لقد فعلت.. ولكنني رأيت معك شاباً فرحلت."

ـ "كلا!"

ـ "نعم لقد كان معك فتى، وكنتما تأكلان في صحن واحد، وتضحكان، وكان الغرام يبدو في عينيك.. ولهذا رحلت."

فأطرقت لحظة، وكانت تبدو عليها الحيرة، ثم أشرق محياها وضحكت بصوت مرتفع زمناً طويلاً، وكانت تمسك جانبيها بصعوبة كبيرة، فسألتها:

ـ "ما الخبر؟ لماذا تضحكين هكذا؟"

ـ "ولماذا لا أضحك؟ إنه كان أخي.. ولهذا لم تعد أيها الأحمق الصغير.. ولم تدخل لتوضيح الأمر،"

وفجأة بدا عليها الجد ثانياً، وأنبأتني على مهل بقصة حياتها:

ـ "لقد انتظرتك ستة أعوام كاملة.. وعندما ذهبت، كنت حزينة جداً.. ثم ولد لي صبي، وكان ابنك.. وبعد عام توفّي، فانتظرتك أربعة أعوام أخرى ـ وأخيراً تزوجت..". ونظرت إلي وابتسمت في حكمة.

وخرج من المنزل فتى صغير وبنت صغيرة وأخذا يجريان نحونا فقالت وهي تشير إلى الفتى:

ـ "إنه حفيدي."

ـ "وهي حفيدتي."

وخلفنا الصبيان وراءهما، وجريا نحو شاطئ البحيرة، ومشينا في هدوء زمناً طويلاً، ثم اقتربت مني وقالت:

ـ "لقد عدت اليوم.. ولست بحزينة، وها أنا أملك بيتاً، وأعيش مع أبنائي، أعيش مع الهواء والتربة وماء وادينا، وها أنت قد عدت اليوم، إنني لا أشعر بحزن أبداً.. فهل أنت كذلك؟"

ظللت ساكتاً برهة طويلة، وأخيراً قلت لها:

ـ "طوال هذه الأعوام ظننت أنني لن أراك ثانياً.. وطوال هذه الأعوام لم آت إلى هنا خوفاً من لقائك، أما وقد رجعت فإنني لا أشعر بأسى.. صدقيني.

مشينا صامتين على الشاطئ، وعاد إلينا الطفلان، فرفعت حفيدتي إلى ذراعي، ورفعت حفيدها إليها، وقبلناهما، وكلانا يرنو إلى الآخر في سعادة ـ والتمع ضوء القمر مرة أخرى في عينيها الرزينتين، وكان القمر يقول لي:

ـ "يفنى الرجال ولكن الحياة باقية.. وفي هذا العام يموت ربيعنا، ولكن في العام القادم يولد ربيع جديد،

إن غرام الرجال والنساء البريء يتلاشى، ولكن الحب الباقي الذي لا يفنى هو الغرام العظيم.. الغرام بالحياة لم يكن كلاكما هنا في الربيع الماضي ولكن هنا الربيع المقبل، ولكن الربيع المقبل، ولكن الربيع سيجيء هنا ويكون هنا، وكذلك الحب والحياة الشباب ونشوة السرور والجمال والرقة والطهر..

لقد ابتعد عنا الأطفال؛ لأنهم أرادوا أن يجروا ويلعبوا على الشاطئ.. ورأيناهم يجرون؛ وقد تشابكت أيديهم نحو شجرة الخوخ ويجلسون على القارب الخشبي المربوط إليها ـ فسألتها بتأثر:

ـ "إنها شجرة الخوخ القديمة نفسها؟"

ـ "كلا.. إن هذه.. حفيدة تلك الشجرة."

# حسن الطاهر زروق

ـ ولد في أم درمان في مايو 1916م.

ـ تخرج في كلية غردون مدرساً في يناير 1936م.

ـ اشتغل مدرساً في مختلف المدارس وكلية المعلمات والمدرسة الأهلية الثانوية زهاء أربعة عشر عاماً.

ـ لاشتغاله بالحركة الوطنية فصل من عمله كمدرس وحرم عليه الاشتغال بهذه المهنة.

ـ تفرغ للعمل السياسي والصحافة، وعرف السجن والمحاكمات.

ـ في أواخر عام 1953م انتخب نائباً في أول برلمان سوداني.

ـ رئيس تحرير جريدة الميدان.

ـــ في مـارس 1956م سـجن سـتة أشـهر بسـبب حملـة الاحتجاج التي قام بها مع كثيرين من حزبه على أثر مقتل المزارعين في منطقة كوستا.

ـ ما زال نائباً في برلمان الجمهورية السودانية.

# المحتوى

بدلاً من التقديم بقلم ديب علي حسن ..... 5
تعريف بالمؤلف بقلم إبراهيم عبد الحليم ..... 31
نزَعوا السّقف من فوقنا للكاتب الألباني "إليكس كاتشي" .. 41
خطاب إلى جندي أمريكي..... 81
ليلة البدر الكاتب الهندي "كريشان تشاندر"..... 101
حسن الطاهر زروق ..... 127

# إصدارات سلسلة
# كتاب الجيب السابقة

| م | عنوان الكتاب | تقديم | اختيار | السنة |
|---|---|---|---|---|
| 162 | أبو الطيب المتنبي حياته وشعره | فلك حصرية | فلك حصرية | 2021 |
| 163 | آرائي ومشاعري | أ.عيسى فتوح | أ.عيسى فتوح | 2021 |
| 164 | ومضات (شذور وأمثال) | أ.سهيل الشعار | أ.سهيل الشعار | 2021 |
| 165 | الثورة رواية اجتماعية قومية | أ.د. فاروق اسليم | أ.د. فاروق اسليم | 2021 |
| 166 | الصعود المتعثر نحو الأمل | فلك حصرية | د. محمد الحوراني | 2021 |
| 167 | موسم الهجرة إلى الشمال | أ.سهيل الشعار | أ.سهيل الشعار | 2021 |
| 168 | المنسيون في التاريخ | فلك حصرية | فلك حصرية | 2021 |
| 169 | الحضور والغياب في المسرح السوري المعاصر | د. محمد الحوراني | اعداد<br>د. إيمان تونسي<br>محمد إبراهيم العبدالله ـ<br>صباح الأنباري | 2021 |
| 170 | قصة الأرض | أ. ديب علي حسن | أ. ديب علي حسن | 2021 |
| 171 | زاهد المالح شاعر اللغة المرئية | د. نزار بريك هنيدي | د.نزار بريك هنيدي | 2021 |
| 172 | ثقافة الأطفال | فلك حصرية | فلك حصرية | 2022 |
| 173 | مختارات من روائع الثقافة والأدب | جودي العربيد | أ. سهيل الشعار | 2022 |
| 174 | نَفَثاتُ مَصْدورٍ وقصائدُ أُخرى | سـراج جـراد | سـراج جـراد | 2022 |
| 175 | كوابيس بيروت | د. ماجدة حمود | د. محمد الحوراني | 2022 |
| 176 | ديوان إيليا أبو ماضي | صبحي سعيد قضيماتي | صبحي سعيد | 2022 |
| 177 | التذوق والجمال في | د. عبد الكريم | د. عبد الكريم | 2022 |

| م | عنوان الكتاب | تقديم | اختيار | السنة |
|---|---|---|---|---|
| | كتابات الاشتر | محمد حسين | محمد حسين | |
| 178 | الشاعر المتنبي بين الشاعرين حامد حسن ورضا رجب | محمد خالد الخضر | محمد خالد الخضر | 2022 |
| 179 | مختارات من أشعار رسول يونان | حيان محمد الحسن | حيان محمد الحسن | 2022 |
| 180 | ضريبة اللباقة | د.نورا أريسيان | د.نورا أريسيان | 2022 |
| 181 | لغة العرب | ديب علي حسن | ديب علي حسن | 2022 |
| 182 | الباحثُ والمؤرّخ الفراتيّ عبد القادر عيّاش حياتُهُ وآثاره ويليه كتاب القمر في حياتنا وتراثنا | أ. سراج جَراد | أ. سراج جَراد | 2023 |
| 183 | أخلاق الأدباء أسمار وأحاديث | أ. فلك حصرية | أ. فلك حصرية | 2023 |
| 184 | صورة الآخر في التراث (نسخة معدلة ومختصرة) | د. ماجدة حمود | د. ماجدة حمود | 2023 |
| 185 | ما هو الشعر | سهيل الشعار | سهيل الشعار | 2023 |
| 186 | الشعر بنيةً وتشريحاً (تاريخ.. مدارس.. نقد..) | تأليف: حامد حسن | | 2023 |
| 187 | في الميزان الجديد | أ.د. أحمد علي محمد | أ.د. أحمد علي محمد | 2023 |
| 188 | رباعيات أنور العطار | نزار بني المرجة | نزار بني المرجة | 2023 |
| 189 | هؤلاء علموني | جودي العربيد | سهيل الشعار | 2023 |
| 190 | فن الحرب /"الكتاب المقدّس للدراسات العسكرية" | عيد الدرويش | عيد الدرويش | 2023 |
| 191 | غسان كنفاني أدب المقاومة في فلسطين المحتلة | أحمد علي هلال | أحمد علي هلال | 2023 |
| 192 | اليهود أنثروبولوجيّاً | ديب علي حسن | ديب علي حسن | 2023 |

| م | عنوان الكتاب | تقديم | اختيار | السنة |
|---|---|---|---|---|
| 193 | جراح تغني | محمود حامد | محمود حامد | 2024 |
| 194 | إبراهيم الخليل.. صفصافة الشرق.. مولاي!!. | د. حمدي موصللي | | 2024 |
| 195 | متعبٌ وجهُ المرايا | د. فايز الداية | د. فايز الداية | 2024 |
| 196 | نجران تحت الصفر | أ. فلك حصرية | أ. فلك حصرية | 2024 |
| 197 | قصتان | د. ثائر زين الدين | د. ثائر زين الدين | 2024 |
| 198 | الخصر والمزمار | أ. حسين عبد الكريم | أ. حسين عبد الكريم | 2024 |
| 199 | سحر | د. نزار بريك هنيدي | د. نزار بريك هنيدي | 2024 |
| 200 | خليل مطران (شاعر الأقطار العربية) | أ . صبحي سعيد | أ. صبحي سعيد | 2024 |
| 201 | التراث بعيون معاصرة | أ . فلك حصرية | أ . فلك حصرية | 2024 |
| 202 | تهويد المعرفة | أ . أيمن الحسن | أ . أيمن الحسن | 2024 |